(١٠)

التحرر من حب الدنيا[١]

● **الخطبة الأولى :**

أما بعد . . . فيا أيها الإخوة المسلمون :

طريق التزكية ليس بالسهل ولا بالمستحيل :

لا زال حديثنا موصولاً حول تزكية الأنفس ، هذه التزكية التي من نجح فيها فقد زحزح عن النار وأدخل الجنة ، ومن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز وقد أفلح ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴾ (الشمس:٩،١٠) ، تزكية النفس ليست بالأمر الهيّن ولا بالأمر السهل . وليست أيضاً بالأمر المستحيل ، إنها يسيرة على من يسرها الله عليه .

أيها الإخوة : من سار على الدرب وصل ، ومن جد وجد ، ومن زرع حصد ، ولا يضيع عملٌ عند الله عز وجل ﴿ فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَـٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ۖ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ﴾ (آل عمران:١٩٥) ، المهم أن يشمر الإنسان عن ساعده ، وأن يبدأ السير في الطريق ؛ طريق التزكية ، ولا يستسلم لأهواء نفسه ، وشهوات غرائزه ، وهذا يحتاج إلى جهاد مرير ، وكما قال البوصيري في بردته :

والنفس كالطفل إن تـــهمله شَبّ علـــى ... حُبِّ الرضاع وإن تفطمه يَـــنْفَطِمِ

فاصـــرف هواهـــا وحـــاذر أن توليـــه ... إن الهوى ما تولى يُصْـــمِ أو يَصِـــم

---

(١) ألقيت هذه الخطبة بمسجد عمر بن الخطاب بالدوحة في يوم الجمعة ٧ من محرم ١٤٢٥ هـ ، الموافق : ٢٧ فبراير ٢٠٠٤م .

إما يصميك : يقتلك ، ويصيبك بسهم قاتل ، وإما يصمك : يعيبك ويشينك ، فاحذر الهوى ، فالهوى شر إله عبد في الأرض ، ﴿ أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ (الجاثية:٢٣).

في الأسبوع الماضي تحدثنا عن داء من أدواء النفس وأمراضها ، ذلكم هو : داء الغفلة ، مرض الغفلة ، الغفلة : عن الله ، عن ذكر الله ، عن آيات الله ، عن لقاء الله وحسابه ﴿ يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ﴾ (الروم:٧) ، ولذلك حذر الله رسوله فقال ﴿ وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴾ (الأعراف:٢٠٥).

حُبُّ الدنيا رأس كل خطيئة :

وهناك داء آخر ؛ مرض من أمراض القلب ، وأمراض النفس هو : الشهوة ، أو حُبّ الشهوة ، أو كما قال القرآن : حُبُّ الشهوات ، ويعبرون عنه بحب الدنيا ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴾ (آل عمران:١٤) ، الخطر هنا هو : حب الدنيا ، وليس ملك الدنيا ، يمكن أن تملك الدنيا ولا تملكك ، وأن تسخر الدنيا ولا تسخرك ، وأن تستخدمها ولا تستخدمك ، أن تضعها في يدك ولا تسكنها في قلبك ، أن تكون لك الدنيا وسيلة لعمل الصالحات واستباق الخيرات ، ولا تكون غاية لك تركض وراءها ، وتعيش لها ، وتقاتل من أجلها ، فرق بين هذا وذاك .

الخطر هو حُبُّ الدنيا ، وكما قال العابد الزاهد الصالح مالك بن دينار : حب الدنيا رأس كل خطيئة .

الغفلة ، وحب الشهوة ، أو حب الدنيا : مرضان من أخطر الأمراض على النفس البشرية ؛ على القلب الإنساني ، فاحذر من هذين المرضين ، حاول أن تخرج من سجن الغفلة إلى باحة اليقظة ، يقظة القلب ، وحاول أن تخرج من حب الدنيا إلى حب الآخرة ، إلى حب الله .

العاقل هو الذي يُؤْثر الباقي على الفاني :

بدل أن تجعل الدنيا نُصْبَ عينيك لكل شيء ، تريد الدنيا ، تُؤْثر الدنيا ؛ آثِر ما عند الله ، آثِر الآخرة على الأولى ، آثِر ما يبقى على ما يفنى ﴿ بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ۝١٦ وَٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴾ (الأعلى:١٦،١٧) ، ﴿ كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ ۝٢٠ وَتَذَرُونَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ﴾ (القيامة:٢٠،٢١)، هـذه مشكلة الناس أنهم يحبون العاجل ، والنفس مولعة بحب العاجل ، الآخرة لا زال بيننا وبينها مراحـل لا نعلمـها ، أما الدنيا فهي العاجلة ، الناس يُؤْثرون العاجل على الآجل ، وهذه آفة خطيرة .

العاقل هو الذي يؤثر الباقي على الفاني ، يقول أحد الزهاد : لو كانت الدنيا ذهباً يفنى والآخرة خزفاً يبقى ؛ لآثر العاقل خزفاً يبقى على ذهب يفنى ، فكيف والدنيا أقل من خزف ، والآخرة أكثر من ذهب .

حب الدنيا هو الذي أهلك الناس ، هو الذي جرّهم إلى الهاوية ، هو الذي جعلهم يقاتل بعضهم بعضاً ، يعادي الابن أباه ، ويعادي الأخ أخاه ، ويعادي الأرحام بعضهم بعضاً . في سبيل عَرَضٍ يسير من الدنيا ، يصبح الرجل مؤمناً ويمسي كافراً ، ويمسي الرجل مؤمناً ويصبح كافراً ، يبيع دينه بعرض يسير من الدنيا .

المذموم إرادة الدنيا لا ملكها :

هذه الدنيا هي التي أبعدت الناس عن الله ، كان في الصحابة أغنياء يملكون الآلاف المؤلفة ، ولكن إذا طلب منهم شيء قدموه لله رخيصاً ، كان في الأنبياء

ملوك ، يوسف وداود وسيلمان ، ولكن الدنيا لم تفتنهم عن آخرتهم ، الخطر هو الإرادة ، الله جعل الناس صنفين : مريداً للدنيا ، ومريداً للآخرة ، فقال تعالى : ﴿ مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ﴾ (الإسراء:١٨) ، من كان يريد العاجلة ، الدنيا وشهواتها وملذاتها ، وما فيها من مال وبنين ، وقناطير مقنطرة ونساء . . . وكذا وكذا ﴿ مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ﴾ سيأخذ نصيبه الذي أراده الله له ، يريد الله أن يعطي قدراً معيناً لمن يشاء ، وليس لكل من أراد الدنيا ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴾ (الإسراء:١٨) من أراد الدنيا فقط فهذا مصيره جهنم ، وفي مقابله ﴿ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴾(الإسراء:١٩) ، أراد الآخرة : أي جعلها أكبر همه ، ومحور تفكيره ، وجعلها نصب عينيه .

أما الذي جعل الدنيا أكبرَ هَمّهِ ، ومبلغَ علمه ، كالذين قال الله فيهم : ﴿ فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ ﴾ (النجم:٢٩،٣٠) ، لم يرد إلا الحياة الدنيا ، إذا عرض له أمران : أحدهما للدنيا ، وأحدهما للآخرة ؛ آثر أمر الدنيا على أمر الآخرة ، ﴿ فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴾ (النازعات:٣٧،٣٩) ، هذا مأواه الجحيم .

الخطر هو حب الدنيا ، والدنيا لا تستحق هذا كله ، لأنك مهما ملكت من الدنيا ماذا لك منها؟ هل تستطيع أن تأكل أكثر من ملء معدتك؟ كل ما شئت من اللذائذ والطيبات ، والله بعد أن يمر من فمك إلى المريء والحلقوم ؛ يستوي الرديء والطيب ، يستوي الحلو والحامض ، وكل سيخرج من مخرجه .

الدنيا لا تستحق هذا كله ، ماذا تستطيع أن تأخذ من الدنيا ، هل تستطيع أن تأخذ معك في القبر صندوقاً من ذهب؟ هل تأخذ معك دفتر شيكات؟ هل تتعامل بالنقود في القبر؟ الناس يقولون : الكفن ليس له جيوب . ليس هناك

كفن به جيوب تضع فيه بعض الأموال ، حتى لو عملت له جيوب ؛ ماذا تفعل بها؟ لا يستطيع أحد أن يرشو «عزرائيل» ليؤخر أجله ، ولا يستطيع أحد أن يرشو منكراً ونكيراً ليلقناه الإجابة في القبر .

الدنيا إما أن تفارقها ، وإما أن تفارقك :

عش ما شئت من الدنيا ستأخذ نصيبك منها ، وهي أرصدة متقاربة .

ثم ما هي الدنيا بالنسبة للإنسان؟ هي عمر محدد معلوم ، أيام معدودة ، وأنفاس محدودة ، عش سبعين سنة ، أو مئة سنة ، أو مئة وعشرين سنة ، ثم ستخرج من الدنيا لا محالة ، عندها ستتضاءل هذه السنون والأيام ، والأسابيع والساعات ، وتصبح كأنها ساعة واحدة ، وتتمنى عند الموت لو رجعت إلى الدنيا ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ۝ لَعَلِّيٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ﴾ (المؤمنون:٩٩،١٠٠) . يتمنى الإنسان عند الاحتضار لو أمهل قدراً قليلاً ؛ ليعمل صالحاً ، ليزيد في رصيده .

دخل أحد الوعاظ ـ ابن السماك ـ على أعظم ملوك الأرض في وقته ـ هارون الرشيد ـ فقال له هارون : عظني يا ابن السماك . قال : يا أمير المؤمنين! هب أنك كنتَ تسير في صحراء ، ثم نفد ما معك من زاد وماء ، واشتد بك الظمأ حتى احترق جوفُك ، وظللتَ تبحث عن ماء فلم تجد ماء ، فجاء لك رجل بكأس من الماء ، وقال لك : يا أمير المؤمنين! أستطيعُ أن أسقيك من هذا الكأس على أن تعطيني نصف ملكك . فماذا تفعل؟! قال : أعطيه نصف ملكي ، وأشرب وأرتوي ، ولا أموت من العطش ، قال : هب أنك يا أمير المؤمنين! بعد أن شربتَ هذا الماء احتبس في جوفك ، وظل يوجعك ، ويؤرقك ، ويتعبك ، تريد أن تبول فلا تستطيع أن تبول ، احتبس البول فيك وأنت تتلوى وتتوجع ، فجاءك من قال لك : أنا أقدرُ أن أعالجك يا أمير المؤمنين وأخرجَ البول منك ؛ على أن تعطيني نصف ملكك الآخر . قال : أعطيه وأنقذ نفسي .

قال : فانظر يا أمير المؤمنين إلى هذا الملك الطويل العريض ؛ الذي لا يساوي شربة وبولة ، ونحن نشرب ونبول كما نريد بلا خوف ولا حرج . هذا من نعم الله تعالى علينا[١] .

وقف سليمان بن عبد الملك ؛ الخليفة الأموي الشاب أمام المرآة فراقه حُسن صورته ، وأعجبه نضرة شبابه ، فقال في زهو وغرور : أنا الملك الفتى! وكان بجواره إحدى إمائه وجواريه ، فنظر إليها ، وقال لها : ماذا تقولين؟ فقالت له : يا أمير المؤمنين! أقول ما قال الشاعر :

أنت نعم المتاع لو كنت تبقى ... غير أن لا بقاء للإنسان
ليس فيما علمته فيك عيب ... كان في الناس غير أنك فان

ولم يلبث سليمان إلا أياماً حتى تُوفي[٢] .

جاءه الموت ، الموت الذي يأخذ الشاب والشيخ ، ويأكل الأخضر واليابس ، هوّن الموت من قيمة هذه الدنيا ، « عش ما شئت فإنك ميت ، وأحبب ما شئت فإنك مفارقه ، واعمل ما شئت فإنك مجزي به ومسؤول عنه »[٣] .

هذه هي الدنيا التي يتهافت الناس عليها تهافت الذباب ، ويتهاوشون على متاعها تهاوش الذئاب ، قال بعض الصالحين : زهدت في الدنيا لقلة غنائها ، وكثرة عنائها ، وسرعة فنائها ، وخسة شركائها! أهل الدنيا ، عُشاق الدنيا ؛

---

(١) راجع القصة بتمامها في كتاب : البداية والنهاية لابن كثير، ج١٠، ٢١٥.

(٢) ذكر ابن كثير في البداية والنهاية : أن سليمان اعتم بعمامة خضراء ، وجلس على فراش أخضر ، وقد بسط ما حوله بالخضرة ، ثم نظر في المرآة فأعجب بحسنه ، وشمر عن ذراعيه ، وقال : أنا الخليفة الشاب ، وقيل : إنه كان ينظر في المرآة من فرقه إلى قدمه ، ويقول : أنا الملك الشاب ، وفي رواية ، أنه كان ينظر فيها ويقول : كان محمد نبيا ، وكان أبو بكر صديقا ، وكان عمر فاروقا ، وكان عثمان حييا ، وكان علي شجاعا ، وكان معاوية حليما ، وكان يزيد صبورا ، وكان عبد الملك سائسا ، وكان الوليد جبارا ، وأنا الملك الشاب. قالوا : فما حال عليه بعد ذلك شهر. (١٨٠/٩).

(٣) سبق تخريجه .

أخساء يقاتلون على الفلس ، لا يقنعون بقليل ، ولا يشبعون من كثير ، هم كجهنم يقال لها : هل امتلأت؟ فتقول : هل من مزيد؟! يبيع أحدهم صاحبه من أجل درهم أو دينار ، هذا معنى خسة شركائها ، هذه هي الدنيا .

جبلت على كـدر وأنـت تريـدها صـفواً مـن الآلام والأكـدار

ومكلـف الأيـام ضـد طباعهـا متطلـب في المـاء جـذوة نـار

لا قيمة للدنيا عند الله :

هذه الدنيا التي يتهافت الناس عليها ويتهاوشون ، ليس لها عند الله قيمة . قيمتها أنها مزرعة للآخرة ، قيمتها أنها الفرصة الوحيدة لتعمل فيها للدار الباقية دار الخلود ، هذه قيمتها ، أما هي في نفسها فليس لها عند الله قيمة ، لو كان لها عند الله قيمة ؛ ما ترك رسله وأنبياءه ، وأولياءه وأحباءه ، يعذبون فيها ، ويعانون البلاء بعد البلاء . النبي ﷺ يقول :« لو كانت الدنيا تزن عند الله جناح بعوضة ؛ ما سقى كافراً منها شربة ماء»[1] ، ولكن الله يمتع الكفار وأعداء الله ، والملاحدة والمشركين به ، ترك لهم الدنيا يتمتعون فيها وِفْقَ سننه ، وشبكة الأسباب والمسببات ؛ التي وضعها في هذا الوجود ، لأن الدنيا مجرد قنطرة إلى الآخرة .

إياك وطول الأمل :

ولذلك جاء عن المسيح عليه السلام يقول : الدنيا قنطرة فاعبروها ، ولا تعمروها . اعبر القنطرة ولا تعمرها . يعني لا تعش فيها عيش الخالدين ، بل عش عيش العابرين كما جاء في الحديث الصحيح : « كن في الدنيا كأنك

---

(١) رواه ابن ماجه (٤١١٠) والترمذي (٢٣٢٠) كلاهما في الزهد ، والطبراني في الكبير (٦/١٥٧) والبيهقي في الشعب (٧/ ٣٢٥) وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه (٣٣١٨) عن سهل بن سعد .

غريب ، أو عابر سبيل[1] » ، هكذا روى ابن عمر عن النبي ﷺ « كن في الدنيا كأنك غريب» تعد العدة للسفر إلى وطنك الأصلي ، إلى الجنة التي هي وطنك الأصلي :

فحي على جنات عدن فإنها ... منازلك الأولى وفيها المخيم!
ولكننا أسرى العدو فهل ترى ... نعاد إلى أوطاننا ونسلم؟

مشكلة الناس طول الأمل ، أن كل واحد يطيل أمله في الدنيا . أصل الأمل مطلوب لتعمر الحياة ، ليزرع الزارع ، ويحصد الحاصد ، ويجتهد الطالب ، ويعمل كل إنسان عمله ، هذا لا بد منه . ولكن المشكلة طول الأمل ، أن يظن الإنسان أن الموت بعيد عنه ، حتى ابن السبعين ، والثمانين ، والتسعين ، والمائة ؛ يستبعد الموت والموت أقرب ما يكون إلى الإنسان .

كل امرئ مصبح في أهله ... والموت أدنى من شراك نعله!

ما نصيبك من جناح البعوضة ؟

لا بد أيها الأخوة أن ننظر إلى هذه الدنيا أنها لا تزن عند الله جناح بعوضة ، الدنيا بأرضها وسمائها ، بمحيطاتها وبحارها ، ببحيراتها وأنهارها ، بجبالها ووديانها وسهولها ، بنباتها وأشجارها وزروعها ، بفضتها وذهبها ، بحيوانها وإنسانها ؛ هذه الدنيا لا تزن عند الله جناح بعوضة .

فانظر أيها الإنسان الفرد : ماذا يكون نصيبك من جناح البعوضة؟ إذا كانت الدنيا كلها لا تزن عند الله جناح بعوضة ، فعلام تقاتل؟ عن أي شيء في جناح البعوضة ؟ وعلى أي شيء ؟ هذه هي الدنيا .

---

(١) رواه البخاري في كتاب الرقاق (٦٤١٦) عن ابن عمر ، وهذا لفظه ، ورواه أحمد في المسند (٤٧٦٤) وابن ماجه في الزهد (٤١١٤) والترمذي في الزهد (٢٣٣٣) عن ابن عمر ، وزاد ابن ماجه والترمذي (وعد نفسك في أهل القبور).

لا بد من الإجابة عن الأسئلة الخالدة[1] :

لا بد أن تعرف للدنيا قدرها ، أن تتخذها طريقاً إلى الآخرة ، أن تنظر في غدك ، في مصيرك ، وهذه هي الغفلة التي أصيب بها الناس . إن الناس لا يتأملون في مصيرهم ، لا يجيبون عن هذه الأسئلة الخالدة الثابتة : من أين؟ وإلى أين؟ ولِم؟ من أين جئت ، وجاء هذا العالم من حولي؟ وإلى أين أذهب بعد أن أموتَ؟ وما أنا ما حقيقتي؟ ولمَ أعيش في هذه الدنيا؟

هذه أسئلة يجب أن يسألها الإنسان لنفسه ؛ ليخرج من نوم الغفلة إلى صحوة الفكرة . يتفكر في خلق السماوات والأرض ، ويقول ما قال أولوا الألباب : ﴿ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ ﴾ (آل عمران:١٩١) ، ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴾(المؤمنون:١١٥)، إلام تنتهي هذه الدنيا؟ أتنتهي وقد انفض هذا السوق؟ وقد قُتِل من قُتِل ، وظُلِم من ظُلِم ، ونَهب من نَهَب ، ثم لا يحاسب الإنسان على ما عمل؟ لا يعْقل هذا . هذا هو الباطل الذي يتنزه الله عنه ، ﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿٢٧﴾ أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴾ (ص:٢٧،٢٨) ، لا يمكن أن يستوي المتقون والفجار ، والمؤمنون والكفار ، والأخيار والأشرار . لهذا كان لا بد من آخرة ليجزي الله فيها كل نفس ما كسبت ، ويوفيها ما عملت ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴾ (الزلزلة:٧،٨) ، لا بد من آخرة .

السؤال الأول : من أين ؟

لا بد أن يجيب الإنسان عن سؤال : من أين؟ ليعلم أنه جاء من الله عز وجل ، الله هو الذي خلقه ، كان عدماً فأوجده الله من عدم ، ﴿ هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ

---

(١) راجع ما كتبه فضيلة الشيخ عن هذه الأسئلة بالتفصيل في كتابه : العبادة في الإسلام ، ص١١ وما بعدها ، طبعة مكتبة وهبة القاهرة .

﴿مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ۝ إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَـٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾ (الإنسان:١،٢) ، الله هو الذي خلقه ، وهو الذي صنعه ، وهو الذي أعطاه السمع والبصر والفؤاد ؛ ليبتليه ويبتلي به .

السؤال الثاني : إلى أين؟

أما السؤال الثاني : فإلى أين؟ الجواب : إلى الآخرة ، كل إنسان سيموت ، ولكن الموت ليس نهاية المطاف ، الموت عبور إلى حياة أخرى . هذه الحياة الأبدية المصيرية ، قضية المصير الأولى ، هي قضية الآخرة ، هي قضية الحساب ، هي قضية الثواب والعقاب ، هي قضية الجنة والنار ، كل قضية قبل ذلك وبعد ذلك لا أهمية لها ، إذا قيست بهذه القضية .

المهم أن تطمئن على قضيتك المصيرية الأولى : إلام تصير؟ إلى جنة أم إلى نار؟ يقول أحد السلف[1] : لقد قطع قلوب الخائفين طول الخلودين : الخلود في الجنة والخلود في النار! ليس قضية هينة هذه ؛ أن تخلد في الجنة أو تخلد في النار . بماذا تبيع الجنة؟ بماذا تشتري النار؟ هذه قضية أساسية مصيرية أن توقن بالآخرة ﴿وَبِٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ (البقرة:٤) .

السؤال الثالث : ما أنا؟

ثم أن تجيب عن السؤال الثالث : ما أنا؟ ما أنت أيها الإنسان؟ هل أنت هو هذا الهيكل المنظور من العظام واللحم ، والأعصاب والدماء؟ هل أنت مجرد هذه الأجهزة والخلايا؟ هل أنت هذا الكيان المادي؟ إذن فالبهائم أفضل منك ، مهما ضخم جسمك فلن تكون في ضخامة الثور ، أو ضخامة الفيل . مهما كنت قوياً فلن تكون في قوة الأسد . هذا الكيان المادي ليس له قيمة ذات بال ،

---

(١) رُوي هذا عن عدد من السلف منهم : يحيى بن أبي كثير(التخويف من النار لابن رجب ص١٨٨)، وابن السماك (الإحياء ، ٤/ ١٨٨).

قيمتك في هذا الشيء الذي أودعه الله في جوانحك ، هذا السر الإلهي ، هذا الروح ، إن الله خلق الإنسان الأول ﴿ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴾ (الحجر:٢٦) ، ثم قال للملائكة : ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴾ (الحجر:٢٩) ، سجدوا لهذه النفخة من روح الله ؛ لا لهذه القبضة من الطين والحمأ المسنون ، فعلى الإنسان أن يعرف قيمته في هذه ، الإنسان صغير في حجمه ؛ ولكنه كبير بما وهب الله له من مواهب ، وما سخر الله له من طاقات ، وما أسبغ عليه من نِعَمٍ ظاهرة وباطنة ، يقول عليّ ﷺ يخاطب الإنسان

دواءك فيك وما تبصر ... وداؤك منك وما تشعر!

وتزعم أنك جرم صغير ... وفيك انطوى العالم الأكبر!

الإنسان بالنسبة لحجمه شيء بسيط في هذه الكرة الأرضية ، التي هي ذرة في هذا الكون ، الكرة الأرضية كرة صغيرة في المجموعة الشمسية ، والمجموعة الشمسية مجموعة من ملايين المجموعات ، في مجرتنا التي نعيش فيها التي يسمونها : سكة التبانة ، لأن النجوم تتناثر فيها كما يتناثر التبن لمن يذرو التبن في الفضاء ، وهذه المجرة إحدى ملايين المجرات في كوننا ، ماذا تكون أنت في هذه الأرض؟ ثم عمرك ؛ ما عمرك بالنسبة لعمر الأرض ، أو عمر الكون؟ مئة سنة ، مئتا سنة ، ألف سنة كما عمّر نوح؟

قيمة الإنسان بقيمة هدفه :

انظر إلى عمر الأرض ، الحياة على الأرض ملايين وبلايين السنين ، انظر إلى عُمر الكون أكثر وأكثر ، وأطول وأطول ، فأنت من ناحية المكان حقير ، ومن ناحية الزمان حقير ، قيمتك إذن ليست بالمكان ولا بالزمان ولا بالحجم ، قيمتك أيها الإنسان : ما أُودِعَ فيك ﴿ أَلَمْ تَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً ﴾ (لقمان:٢٠) .

السؤال الرابع : لِمَ :

بقي عليك أيها الإنسان : أن تجيب عن السؤال الرابع : لِمَ ؟ إذا أجبت عن أسئلة : من أين؟ وإلى أين؟ وما أنا؟ يلزمك أن تجيب عن سؤال : لِمَ ؟ أي لما خلقت في هذه الدنيا؟ ألهدف ورسالة؟ أم لغير شيء؟ وهنا تظهر قيمتك حقا؟ أنت أيها الإنسان كبير بهذا المعنى ، كبير بما لك من هدف ، كبير بما لك من رسالة في هذا الوجود . أيها الإنسان ما أنت؟ لقد أجبت عن سؤال (ما) ، ما أنا؟ ما حقيقتي؟ والآن أجب عن سؤال آخر : (لم)؟ لماذا أعيش في هذه الدنيا؟

هناك أناس لا يعرفون لهم في الحياة هدفاً ، ولا يتذوقون للحياة معنى ، ويرون أن الحياة تافهة ، لا تستحق أن تُعاش ، ولذلك يُعجّل بعضهم بالانتحار لأدنى سبب ، لأن الحياة لا تستحق ، هم لا يعرفون لهم هدفاً في هذه الحياة ، لا يعرفون لهم رسالة في هذا الوجود ، لماذا يعانون ؟ يعترض أحدهم على أبيه : لماذا أَنْجَبَه أبوه؟ ويرفض أن يتزوج ويقول : هذا جناه أبي عليّ وما أريد أن أجني على أحد! أبي جنى عليّ لشهوة دفعتْهُ ، وأنا لا أريد أن أجني على أجيال قادمة .

المؤمن يعيش ليعبد الله عز وجل :

هؤلاء الذين ينظرون إلى الحياة بهذه الطريقة ليس لهم هدف ولا رسالة ، ولكن المؤمن حين يعيش في هذه الدنيا ؛ يعلم أن له رسالة ، ما هي رسالة الإنسان المؤمن؟ يقولون في المثل : الأحمق يعيش ليأكل ، والعاقل يأكل ليعيش . هذا صحيح ولكن هذه الحكمة لم تحل المشكلة ، لأنه سيظل السؤال : إذا كان العاقل يأكل ليعيش فلماذا يعيش؟ هل العيش هدف في ذاته؟ لا . لا بد أن يكون للعيش هدف آخر . ما هو هدف هذا العيش؟ ولذلك نكمل هذه الحكمة فنقول : الأحمق يعيش ليأكل ، والعاقل يأكل ليعيش ، والمؤمن يعيش ليعبد الله عز وجل ، ويقوم بخلافته في أرضه .

رسالة المسلم تتمثل في ثلاثة أشياء :

الأول : معرفة الله تعالى وعبادته :

المؤمن له هدف وله رسالة ، ليست رسالته الأكل والشرب ، بل له رسالة أكبر من هذا وأخطر ، إن رسالته تتمثل في ثلاثة أشياء : معرفة الله تعالى وعبادته ، الله خلق هذا الكون علويه وسفليه ليعرفه الناس ، ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًا ﴾(الطلاق:١٢)، خلق الله كل هذا الكون لتعرفوا الله، لتعلموا الله بأسمائه الحسنى، وصفاته العليا، وبعلمه المحيط، وقدرته النافذة ، ﴿ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًا ﴾ ، هذا العلم يؤدي إلى عبادة الله ، من عرف الله حق معرفته ، عبده حق عبادته ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴾ (الذاريات:٥٦-٥٨) ، في بعض الآثار الإلهية : « يا عبادي إني ما خلقتكم لأستأنس بكم من وحشة، ولا لأستكثر بكم من قلة، ولا لأستعين بكم من وحدة على أمر عجزت عنه ، ولا لجلب منفعة ، ولا دفع مضرة ، ولكن خلقتكم لتعبدوني طويلا ، وتذكروني كثيرا ، وتسبحوني بكرة وأصيلا »[1] معرفة الله وعبادته الهدف الأول من خلق الإنسان .

الثاني : عمارة الأرض :

والهدف الثاني من خلق الإنسان : عمارة الأرض ﴿ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ﴾ (هود:٦١) ، واستعمركم فيها : أي طلب منكم عمارتها ، ولهذا استخلفكم ولم يستخلف الملائكة ؛ التي تطلعت إلى هذا المنصب ، وقالت لله تعالى : ﴿ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (البقرة:٣٠) أنتم أيها الملائكة لا تصلحون

---

(١) لم أقف على تخريج له ، ولكن معناه صحيح .

عمارة الأرض ، لأنكم لا تأكلون ولا تشربون ولا تتناسلون ، وليس لكم حاجات تربطكم بالأرض ، هناك نوع آخر هو الجدير بالخلافة ؛ وهو : آدم . لذلك حينما عقد امتحاناً لهم مع آدم ، نجح آدم في العلم ، لأن الله علّمه لأسماء كلها ؛ مما يتعلق بعمارة الأرض .

لثالث : الخلافة عن الله :

والهدف الثالث هو : الخلافة عن الله تعالى ، أن يكون الإنسان خليفة لله في رضه ، يقيم فيها الحق والعدل ، وهذا هو هدف الرسالات السماوية كلها ﴿ لَقَدْ رْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ ﴾

(الحديد:٢٥)

الإنسان الذي يعيش لهذه الرسالة ، لا يمكن أن تكون الحياة تافهة عنده ، إنها حياة غالية ، حياة لها معنى ، يعيش لهذا المعنى ، ويعمل لهذا المعنى ، يجاهد لهذا الهدف ، وهذا هو الإنسان .

أيها الإخوة من عرف هذه الأشياء ، كانت هذه المعرفة ـ إذا تأصلت في عقله ، هيمنت على تفكيره ـ كانت وسيلة من وسائل النجاح لتزكية نفسه .

ومن جهل هذه الحقائق ؛ لم يفلح في تزكية نفسه ، غلبته نفسه ولم يغلبها ، غلبه هواه وانتصرت عليه غرائزه ، وأصبح كالأنعام ، أو أضل سبيلا ، فعلينا يها الإخوة لكي نُزكي أنفسنا أن نستحضر هذه المعاني الأساسية ، لنخرج من سجن الغفلة ، وننتصر على داء الشهوة ، وحب الدنيا ، ننتصر على حب الدنيا ، إرادة الدنيا بإرادة الآخرة ، لنريد الآخرة ونسعى لها سعيها ونحن مؤمنون ، ﴿ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْأَخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴾

(الإسراء:١٩)

أسأل الله أن يفقهنا في ديننا ، وأن يبصرنا بحقائق دينه ، وأن ينير قلوبنا معرفته ، وأن يجعلنا من العارفين به ، العابدين له ، العاملين لآخرتهم . إنه

سميع قريب . أقول قولي هذا ، وأستغفر الله تعالى لي ولكم ؛ فاستغفروه . إنه هو الغفور الرحيم ، وادعوه يستجب لكم .

* * *

● **الخطبة الثانية :**

أما بعد . . . فيا أيها الإخوة المسلمون :

إسرائيل تسرق بالإكراه :

لا زالت دولة الكيان الصهيوني تستكبر في الأرض بغير الحق ، وتقول : من أشد منا قوة ، تستعرض عضلاتها ، تعيث في الأرض فساداً ، تُقتّل وتُذبّح ، وتخرّب وتدمر . ولا يقول أحد لها : لم؟ فضلاً عن أن يقول لها : لا . وآخر ما فعلته من طغيان ؛ تلك الجريمة الهائلة التي لم نر لها في الدنيا نظيراً : أن تدخل على البنوك الفلسطينية ، وتستولي على أموالها بقوة السلاح . ماذا تقول عن هذه الجريمة ؟ دولة تستخدم السلاح ، لتدخل على بنوك رسمية ، لتأخذ تسعة ملايين ، أو نحو ذلك من أموال الناس ، بقوة السلاح ! !

ماذا تسمي هذا؟ تسميه قرصنة ؟ تسميه سرقة بالإكراه ؟ تسميه حرابة ؟ أو قطع طريق؟ هذا أولى ما تُسمى به هذه الجريمة ، أن تدخل المسماة : إسرائيل على بنوك فلسطين ، وتستولي بالسلاح على ما فيها ، ولا يقول لها أحد : كُفي ؛ لأنها الطفلة المدللة ، الدولة التي لا يلومها أحد ، التي تعطيها أمريكا الحق في أن تفعل ما تشاء ، ومن أراد أن يلومها ، أو يحاسبها ، أو يوجه إليها لوماً ؛ فهناك الفيتو الأمريكي ، الذي يحمي إسرائيل ، يحميها أن يُوجّه إليها مجرد لوم ، أن يقال لها : عيب يا أيتها الدولة المدللة .

أمريكا مشغولة بمشروع الشرق الأوسط الكبير :

ولكن أمريكا مشغولة بأمر آخر ، مشغولة بما سمته : الشرق الأوسط الكبير ، الشرق الأوسط الكبير لم يعد مقصوراً على العرب ودولة الكيان الصهيوني ، بل

ضمت إليها دولاً إسلامية أخرى : باكستان وأفغانستان ، وتركيا وإيران . كل هذا سمته : الشرق الأوسط الكبير .

أمريكا مشغولة بهذا الشرق الأوسط الكبير ، تريد أن تصنعه صناعة جديدة ، صناعة أمريكية ، صناعته القديمة لم تعد تصلح! تريد أن تصنع عقله ووجدانه ، وضميره وعواطفه ، وميوله وأذواقه . تريد أن تبني له فلسفة جديدة في الحياة ، تريد أن تبني له فكرة عن الإنسان ، وعن الكون ، وعن الوجود ، غير الفكرة التي تعلمها الناس من دينهم .

لن نسير في الركاب ، ولن نتمسح بالأعتاب فنحن أمة لها حضارة :

تريد أمريكا أن تعلم المسلمين دينهم ، أن يغير الناس تعاليم الدين وفق ما تريده أمريكا ، أن يغيروا تعليم أبنائهم وبناتهم وفق ما تريده أمريكا ، نحن لسنا ضد الإصلاح ولا ضد تغيير مناهج التعليم ، وفلسفة التربية ، نحن دائماً ننادي بالإصلاح ، ونرى الإصلاح فريضة وضرورة ، فريضة يوجبها الدين ، وضرورة يحتمها الواقع ، ننادي بهذا بملء أفواهنا من سنوات وسنوات ، ولكنا لسنا أحجاراً على رقعة الشطرنج ، لسنا تلاميذ تعلمنا أمريكا ، لسنا أمة خاوية ، أو أمة فارغة من المعنى ؛ نحن أمة لها جذور ، أمة لها تاريخ ، أمة لها حضارة ، أمة لها فلسفة ، أمة لها رسالة عالمية ، أقامت حضارة شامخة ، تعلمت أوروبا منها ، وتعلم الغرب منها .

عشرة قرون من الزمان كنا فيها الأمة الأولى ، والعالم الأول ، لن نرضى لأنفسنا أن تصبح أمريكا قيّمةً علينا ، وعلى تعليمنا ، وتقول لنا : ابقوا هذا ، واحذفوا هذا ، وغيّروا هذا ، وعدّلوا هذا ! لسنا عبيداً لأمريكا ، نحن سادة أحرار . ولهذا رفض هذا العالم العربي كله : الحكام والمحكومون ، الساسة والشعوب ، اليمينيون واليساريون ، التقدميون والرجعيون ، القوميون والإسلاميون ، كل الفئات رفضت هذا ، ويجب أن ترفض هذا .

نحن لا نقبل وصاية من أحد علينا . نحن ننادي بوجوب الإصلاح ؛ ولكن نصلح أنفسنا بأنفسنا لأنفسنا ، نصلح أنفسنا بأنفسنا لأنفسنا ، وليس لإرضاء أحد آخر ، نحن إذا أصلحنا تعليمنا ، وأصلحنا ثقافتنا ، وأصلحنا تربيتنا ؛ لو أصلحناه لحساب آخرين ؛ فهذا لا يتفق مع مصلحتنا ، لأن مصلحتنا غير مصلحتهم ، وفلسفتنا غير فلسفتهم ، وهدفنا غير أهدافهم ، ولهذا نرفض هذا كله ، نرفض التدخل في تعليمنا وثقافتنا ، يجب أن نرفض هذا بصراحة ، لا ينبغي أن نستسلم .

هناك عبيد[1] يريدوننا أن نسير في الركاب ، وأن نتمسح بالأعتاب ، وأن نقف على الأبواب ؛ شحاذين سائلين ، هؤلاء عبيد لا قيمة لهم ، الذين يريدون أن نحرق البخور بين أيدي الاستعمار الجديد ، هؤلاء لا مكان لهم في ديارنا ، ولا في حياتنا ، ليلحقوا بأسيادهم ، فالعبد جدير بأن يلحق بسيده ، ولكن أمتنا كلها ترفض هذه التبعية الذليلة ، ترفض العبودية الخاسرة .

نحن أحرار ولسنا عبيداً ، نحن سادة أعزاء ، ولسنا أذلاء ، نحن لنا رسالتنا وحضارتنا ، نرفض أن يفرض علينا الإصلاح ، ونحن نرفض أن يفرض علينا التعليم ، أو يفرض علينا الإعلام ، ولذلك ينبغي أن نقاطع الإعلام الاستعماري ، الذي يحاول أن يغزونا في عقر دارنا ، ليغيرنا من داخلنا ، هذا الذي يسمونه (الحرّة) أو قناة (الحرّة) هذا غزو جديد ، يجب أن نقاطع هذا الإعلام ، يكفينا إعلامنا ، لا نريد أن نتعلم من هذا ، إن كان ما عنده خيراً فنحن نرفض هذا الخير الذي يأتينا من عنده ، عندنا الخير كله ، عندنا الخير في ديننا ، في ثقافتنا ، علينا أن نغربلها ، ونتعلم منها ، ونأخذ خيرها ، وندع شرها ، ونُعْمِل عقولنا ، ونستفيد من وسائلهم وآلياتهم ، لا من فلسفتهم وقيمهم ، نحن لنا فلسفتنا

---

(١) لفظة عبيد استخدمها الشيخ مع أذناب الغرب وتلاميذه ، ولما سئل عن ذلك قال :إنما هو الاستعمار وتلاميذه وعملاؤه من المستشرقين والمنصرين ، وتسميتهم الحقيقية «عبيد الفكر الغربي» فهم لا يَرْقون ليكونوا تلاميذ الفكر الغربي ، فإن التلميذ يناقش أستاذه ، وقد يخالفه ويرد عليه ، ولكن موقف هؤلاء من الفكر الغربي هو التبعية والعبودية ، التي ترى أن كل ما يؤمن به الغرب هو الحق ، وكل ما يقوله فهو صدق ، وكل ما يفعله فهو جميل! انظر : من أجل صحوة راشدة ص ٥٦.

وقيمنا ، وإنما تتميز الأمم بهذه الخصوصيات . كل أمة لها فلسفتها ، ولها قيمها ؛ لا تستورد هذه الفلسفة وهذه القيم من أمم أخرى ، وإلا ضاعت شخصيتها ، وذابت هويتها ، وانتهى وجودها ، لا مبرر لوجود أمتنا إذا تنازلت عن رسالتها ، ورسالتها هي : الإسلام ورضي الله عن ابن الخطاب الذي قال : نحن كنا أذل قوم فأعزنا الله بالإسلام ، فمهما نلتمس العزة بغيره أذلنا الله ، ﴿ بَشِّرِ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣٨﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَـٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴾ (النساء:١٣٨،١٣٩).

أسأل الله تعالى أن يسدد الخطى وينير الطريق ، وأحب أيها الإخوة أن ندعو بحرقة وحرارة لإخواننا في أرض النبوات ، في أرض الإسراء والمعراج ، في أرض البطولات ، في أرض الشهداء ، التي تقدم كل يوم عشرات الشهداء ، ولا زال شارون يتبجح ويستكبر في الأرض بغير الحق ، ويهدد ويتوعد ، والأمة العربية والإسلامية تنام نومة أهل الكهف ، تغط في سبات عميق ، في صمت كأنه صمت أهل القبور .

أسأل الله سبحانه وتعالى أن يَشُدَّ أزر إخواننا الأبطال في جهادهم ، أن يُقَوِّيهم في بطولاتهم ، أن يُنيرَ الطريق أمامهم ، أن يأخذ بأيديهم إلى مواطن النصر ، أن يحرسهم بعينه التي لا تنام ويكلأهم في كنفه الذي لا يضام ، اللهم افتح لهم فتحاً مبيناً ، واهدهم صراطاً مستقيما ، وانصرهم نصراً عزيزاً ، وأتم عليهم نعمتك ، وأنزل في قلوبهم سكينتك ، وانشر عليهم فضلك ورحمتك .

عباد الله ، يقول الله تبارك تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَـٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ ۚ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴾ (الأحزاب:٥٦) اللهم صل وسلم وبارك على عبدك ورسولك محمد ، وعلى آله وصحبه ، والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين .

* * *

(١١)

محطة العلم[١]

● **الخطبة الأولى :**

أما بعد . . . فيا أيها الإخوة المسلمون :

لا زال حديثنا موصولاً حول تزكية النفس ، نفس الإنسان الذي وصفه الله بأنه ﴿ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً ﴾ (الأحزاب:٧٢) ، وإنه ﴿ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾ (إبراهيم:٣٤) ، وإنه ﴿ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ﴾ (العاديات:٦) وأنه ﴿ خُلِقَ هَلُوعًا ۝ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ۝ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴾ (المعارج:١٩-٢١) ، هذا الإنسان الذي ألهم الله نفسه فجورها وتقواها ، ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴾ (الشمس:٧،٨) هذا الإنسان الذي ابتلاه الله فهداه النجدين ، وعرفه الطريقين : طريق الخير وطريق الشر ، ﴿ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴾ (الإنسان:٣) . ﴿ أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ۝ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ۝ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴾ (البلد:٨-١٠)

لا يستطيع هذا الإنسان أن يتزكى ويتطهر ؛ إلا إذا جاهد نفسه ، ليحررها من أهوائها وشهواتها ، والاستسلام لغرائزها ؛ حتى تترقى وترتفع عن مستوى الحيوانية إلى مستوى الإنسانية ، أو مستوى الملائكية . لا يتم هذا إلا برياضة كما تراض الأجسام ؛ لتقوى وتسلم . لا بد أن تراض النفوس ، وأن تزكى وتجاهد ، ومن سار على الدرب وصل ، والله تعالى يقول : ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ (العنكبوت:٦٩) . لا بد أن تجاهد ،

---

(١) ألقيت هذه الخطبة بمسجد عمر بن الخطاب بالدوحة في يوم الجمعة ٢٨ من محرم ١٤٢٥هـ الموافق : ١٩ مارس ٢٠٠٤م .

وأن يكون جهادك في سبيل الله ، لابتغاء مرضاة الله ، حتى تصل إلى هدى الله : ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ (العنكبوت:٦٩).

طريق طويل مفروض على كل مسلم :

تزكية النفس أمر مفروض على كل مسلم ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴾ (الشمس:٩،١٠) ، وهو طريق طويل لا بد أن تَجْتاز فيه محطات ، ولا بد أن تَقطع فيه مراحل ؛ حتى تصل إلى نهايته . هذه المحطات كثيرة ووفيرة ، لا نستطيع أن نتحدث عن تفصيلاتها ، ولكننا نستطيع أن نتحدث عن المحطات المهمة والكبيرة والرئيسة ، في هذا الطريق إلى الله ، الطريق إلى رضوان الله ، الطريق إلى الجنة .

أول محطة في هذا الطريق هي : محطة العلم ؛ محطة المعرفة ، أن تقطع طريقك عن بينة ، على نور ، على بصيرة . أن تعرف إلام تسير؟ وكيف تسير؟

لا تمض على عمى ، ليس عندنا في الإسلام (اعتقد وأنت أعمى) أو (آمن ثم اعلم) ، لا بد أن تعلم طريقك أولاً ، الإمام البخاري ﷺ يقول : (باب العلم قبل العمل[1]) ويستدل على ذلك بقول الله تعالى : ﴿ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ ﴾ (محمد:١٩)، اعلم واستغفر ، أمر الله بالعلم ثم بالاستغفار ، والاستغفار عمل ، قدّم العلم على العمل .

ومن أدلة ذلك ؛ أن أول ما أَنْزل الله في القرآن ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴾ (العلق:١)، والقراءة مفتاح العلم والمعرفة ، قبل أن يُنزل الله أحكاماً وأوامر ونواهي أَمرَ بالقراءة ؛ أي بالتعلم ﴿ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ (العلق:٤،٥) ، ثم أنزل الله بعد ذلك ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢

---

(١) هو الباب العاشر من الكتاب الثالث (كتاب العلم) .

﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ۝٥ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ۝٦ وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ﴾ (المدثر:١-٧) ، أمره بأن يؤدي حقه لله ، وحقه للنفس ، ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾ ، أن يفعل ويترك ، ﴿وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ﴾ ـ العذاب وأسباب العذاب وهي المعاصي ـ ﴿فَاهْجُرْ ۝٥ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ۝٦ وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ﴾.

إن الطريق طويل يحتاج إلى صبر طويل ، بدأ الإسلام بالعلم قبل العمل ، ولذلك على من يريد سلوك الطريق إلى الله ؛ على من يريد تزكية النفس : عليه أن يتعلم ؛ أن يتعلم ما هو فرض عليه في حق ربه ، وفي حق نفسه ، وفي حق أسرته ، وفي حق جيرانه ، وفي حق مجتمعه ، وفي حق أمته ، وفي حق الإنسانية جمعاء . بل في حق الحيوانات ، وفي حق الكون كله . يحتاج إلى أن يتعلم ليمضي في طريقه على نور ، ولذلك كان طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة[1] .

الاكتفاء الذاتي في كل علم فرض كفاية :

هناك من العلم ما هو فرض كفاية ؛ يجب أن يتعلمه بعض الناس ، ليغني بعضهم عن بعض ، ليس من الضروري أن يكون كل الناس متبحرين في علم الفقه ، أو علم التفسير ، أو علم الحديث ، وليس من الضروري أن يكون كل الناس كيميائيين ، أو فيزيائيين ، أو مهندسين ، أو أطباء . العلم سواء أكان دينياً أم دنيوياً منه ما هو فرض كفاية . بمعنى أنه : يجب على الأمة أن يكون فيها عدد كاف من أهل هذا العلم ، بحيث تكتفي اكتفاء ذاتيا في هذا الأمر ،

---

(١) جاءت بذلك الأحاديث ، ومنه قوله ﷺ : «طلب العلم فريضة على كل مسلم ، وواضع العلم عند غير أهله كمقلد الخنازير الجوهر واللؤلؤ والذهب» رواه ابن ماجه في المقدمة (٢٢٤) عن أنس ، والطبراني في الكبير (١٠/ ١٩٥) عن ابن مسعود مختصرا ، وفي الأوسط (١/ ٧) وفي الصغير (١/ ٣٦) وصححه الألباني في تخريج مشكلة الفقر (٨٦) وفي صحيح ابن ماجه (١٨٣) دون قوله : «وواضع العلم عند غير أهله كمقلد الخنازير الجوهر واللؤلؤ والذهب».

ولا تحتاج إلى غيرها ، هذا ما يسميه العلماء : فرض الكفاية ؛ إذا قام به بعض أو عددٌ كافٍ سقط الإثم عن باقي الأمة ، وإلا أثمت الأمة جميعُها . يجب على الأمة أن يكون فيها من العلماء والخبراء ؛ في كل علم من علوم الدين أو علوم الدنيا ، من يسد حاجتها ويلبي مطالبها ، ويغنيها أن تكون عالة على غيرها .

ما لا يجوز الجهل به :

ولكن هناك علم هو فرض عين على كل مسلم ومسلمة ، كل مسلم ومسلمة ؛ عليه أن يتعلم من دينه ما يصحح به عقيدته : في الألوهيات والنبوات والسمعيات ، يعرف من أسماء الله تعالى وصفاته ، ويعرف من حقائق النبوة ، وخصوصاً النبوة الخاتمة ؛ نبوة محمد ﷺ .

ويعرف من أمور الآخرة ما يصل به إلى اليقين ، وحق اليقين .

عليه أن يعرف من أمور الحلال والحرام ما يضبط به سلوكه ، فلا يقع في الحرام وهو لا يدري .

لا بد أن يتعلم وخصوصاً ما يتعلق به ، ويحتاج هو إليه . إن كان تاجراً عليه أن يعرف أصول أحكام التجارة وأصول المعاملات ، إن كان غنياً يجب أن يتعلم ما يجب عليه في أمور الزكاة ، إن كان يريد أن يحج عليه أن يتعلم أحكام الحج ، وهناك أشياء على كل إنسان أن يعرفها ، مما لا بد منها : من أحكام الطهارة ، والصلاة ، والصيام . . . وهكذا .

لا بد أن يتعلم دينه ، وأهم شيء أن يتعلم علم طريق الآخرة ، علم طريق الله ، قد يعرف الإنسان كتب الفقه ، وقد يحفظ الألوف من الأحاديث ، وقد يقرأ من كتب التفاسير ، ولكنه لا يعلم في طريق الآخرة شيئاً ، فيقع في مهاوي المعصية ، ويسير في ركب الشيطان ، ويتبع الهوى المضِل عن سبيل الله ، وهو لا يدري . المهم أن تتعلم طريق الآخرة ، وتتعلمه من أهله ؛ من العلماء

الربانيين[1] الذين يدلونك على الله ، ويأخذون بيدك إلى طريق الله ، تتعلمه بالسمع والقراءة ، من الكتب التي تنير قلبك للإيمان ، وتشرح صدرك للإسلام ، وتحثك على عمل الصالحات ، واستباق الخيرات ، واجتناب السيئات ، يمكن أن تتعلم .

وفي عصرنا أصبحت أدوات العلم ميسورة ، تستطيع أن تتعلم بالقراءة ، وتستطيع أن تتعلم بالسماع من الأشرطة ، وتستطيع أن تتعلم من الفضائيات ، وتستطيع أن تضع الشريط وأنت سائر في سيارتك لتستمع إليه ، المهم أن تحسن القراءة وتحسن السماع ، تحسن اختيار ما تقرأ ، وتحسن اختيار ما تسمع . قال أحد الحكماء : أخبرني ماذا تقرأ أخبرك من أنت . أستطيع أن أعرف شخصيتك من نوع ما تقرأ ، وكذلك من نوع ما تسمع . إذا كنت مولعاً بالمبالغات والتهاويل التي يقولها بعض الوعاظ ؛ فأنت إنسان سطحي ، أنت إنسان لا تريد أن تعرف حقائق العلم ، تريد أن تعيش على السطح ، في هذه التهاويل التي لا تعرف منها حقيقة ، حاول أن تسبر الأغوار ، وأن تدرك الحقائق ، وأن تغوص في الأعماق . لا تقف عند السطوح ، ولذلك اختر عالِمَك ، واختر كتبك ، واختر من تستمع إليه .

احذروا هؤلاء :

١- ضيّق الأفق :

هناك أناس راجت في هذه الأيام كتبهُم ، وراجت أشرطتهم ، وكلما سمعتها أمسكت قلبي ، إن هؤلاء يضللون المسلمين ، يكبرون الأمور الصغيرة ، ويصغرون الأمور الكبيرة ، ويهونون الأمور العظيمة ، ويعظمون الأمور الهينة ، هذه مشكلة كبيرة ، وتحتاج إلى إدراك ، تحتاج إلى حسن فهم ، حتى نفهم عن

---

(١) لنا كلام مهم في كتابنا : (الصحوة الإسلامية بين الجحود والتطرف) ضمن سلسلة كتاب الأمة ، تحت عنوان : (خذوا عن أهل الورع والاعتدال) ص ٢٠٧ وما بعدها ، فليراجع .

الله وعن رسوله ، ولذلك اختر العالم الواسع الأفق ، لا العالم الضيق الأفق ، اختر العالم الذي اتسع إدراكه ، واتسعت معرفته ، وعاش في هذا العصر بعينين ؛ يرى فيها العصر من ناحية ؛ ويرى فيها التراث الإسلامي والعلم من ناحية أخرى ، أو بعين أخرى .

٢- الذي يتبع الهوى :

ثم من ناحية ثانية : احذر العالم الذي يتبع الهوى ؛ الذي يبيع دينه بدنياه ، أو يبيع دينه بدنيا الحكام والأمراء ، أو يبيع دينه بدنيا العامة ، هناك علماء يبيعون دينهم للسلاطين ، وهناك آخرون يبيعون دينهم للعوام ، يبحث عما يرضي العامة ويرضي شهواتهم ومبالغاتهم، وهؤلاء أخطر من علماء السلاطين، لأن علماء السلاطين يكشفون ، وهؤلاء قلما يكشفون ، احذر هؤلاء .

احذر الهوى ، العالم الذي يتبع الأهواء ؛ أهواء السلاطين ، أو أهواء العوام ، ثم ابحث عن العالم المعتدل ، الذي لا يفرط ولا يفرّط ، لا يغلو ولا يقصر ﴿ وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ۝٧ أَلَّا تَطْغَوْا۟ فِى ٱلْمِيزَانِ ۝٨ وَأَقِيمُوا۟ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا۟ ٱلْمِيزَانَ ﴾ (الرحمن:٧-٩) ، تستطيع أن تنتقي كتبَك وأن تقرأ ، فإذا أَشْكَلَ عليك أمر ؛ سألتَ فيه العالم الثقة .

أحب أن أنبه هنا : أن كثيراً من الناس يحسبون أن كل واعظٍ جيد ، مفتٍ جيد! يحسبون أن الخطيب الذي يهز أعواد المنابر ؛ قادر على أن يُحسن الفتوى للناس !

ولكن هذا فن وهذا فن . هذا علم وهذا علم ، قد يكون خطيباً من أعظم الخطباء ؛ وليس أهلاً لأن يفتي ، فاحذر أن تأخذ دينك من كل صاحب عمامة ، وكل صاحب لحية كبيرة ، إن هذا العلم دين ، فانظروا عمن تأخذون دينكم[1] ،

---

(١) من كلام محمد بن سيرين ، وذكرها مسلم في صحيحه في المقدمة باب : بيان أن الإسناد من الدين. وتنسب إلى أنس ، وابن عمر ، وأبي هريرة. ولا يصح ذلك .

إذا أشكل عليك أمر فاسأل به خبيرا ، كما قال الله تعالى : ﴿ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ﴾ (النساء:٨٣) .

هؤلاء ضلوا وأضلوا :

وإن أخطر ما يصاب به المسلمون ؛ ما حذّر منه النبي ﷺ : أن يأتي زمان ؛ يُفْقَدُ فيه العلماء الأصلاء ، ويتخذ الناس رؤوساً جهالاً ، فإذا سئلوا ؛ أفتوا بغير علم ، فضلوا وأضلوا[1]. في عصر النبي ﷺ أصيب أحد الصحابة بجراح ، ثم أصابته جنابة ، فاستفتى بعض إخوانه ، فأفتوه أن يغتسل ، وبه هذه الجراحة ، فاغتسل الرجل ، فتفاقم الجرح عليه فمات . فلما بلغ النبي ﷺ هذه الفتوى الجاهلة ؛ قال :« قتلوه قتلهم الله » أخبر أنهم قتلوه بهذه الفتوى . من الفتاوى ما يقتل ، ويسفك الدماء ، « قتلوه » ودعا عليهم ، فقال :« قتلوه قتلهم الله ، هلا سألوا إذ لم يعلموا ، فإنما شفاء العي السؤال» الجهل مرض يُشْفَى بسؤال العالم ، « إنما كان يكفيه أن يعصب على جرحه ويتيمم»[2] « قتلوه قتلهم الله » هكذا قال الرسول ﷺ . حاول أن تتعلم دينك .

أول محطة في الطريق إلى الله ، في طريق تزكية الأنفس : العلم والمعرفة ، أن تبني طريقك على علم ، وإنما العلم بالتعلم ، الله تعالى يقول : ﴿ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ

---

(١) جزء من حديث ، ونصه :« إن الله لا يقبض العلم انتزاعا ينتزعه من صدور الرجال ، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء. فإذا لم يبق عالم اتخذ الناس رؤساء جهالا ، فسئلوا فأفتوا بغير علم ، فضلوا وأضلوا» متفق عليه : رواه البخاري في العلم (١٠٠) ، ومسلم في العلم (٢٦٧٣) وأحمد في المسند (٦٥١١) وابن ماجه في المقدمة (٥٢) والترمذي في العلم (٢٦٥٢) عن عبد الله بن عمرو.

(٢) رواه أحمد في المسند (٣٠٥٦) عن ابن عباس ، وقال مخرّجوه : حسن ، وهذا سند رجاله ثقات ، رجال الشيخين إلا أن فيه انقطاعا بين الأوزاعي ، وبين عطاء بن أبي رباح ، ورواه ابن ماجه في الطهارة (٥٧٢) وأبو داود في الطهارة (٣٣٦) عن جابر ، والحاكم في مستدركه (١/ ٢٨٥) عن ابن عباس ، وقال الألباني في صحيح أبي داود : حسن دون قوله : « إنما كان يكفيه» (٣٢٥).

﴿ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (النحل:٧٨)، هذه أدوات المعرفة : السمع ، البصر ، الفؤاد ، أي العقل ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴾ (الإسراء:٣٦) . لا تعتقد في شيء بغير حجة من العلم .

بعض الناس يروون حديثاً عن النبي عليه الصلاة والسلام أنه قالْ : « أكثر أهل الجنة البله »[1] هذا حديث لا قيمة له في ميزان العلم ، بل أهل الجنة هم أولو الألباب ؛ كما ذكر القرآن الكريم عن أولي الألباب ﴿ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَـٰذَا بَـٰطِلًا سُبْحَـٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾ (آل عمران:١٩١) ، هؤلاء هم الذين لهم الجنة ، ﴿ لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ ﴾ (آل عمران:١٩٥) ، ﴿ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ ۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴾ (الرعد:١٩) ، وذكر أوصافاً لأولي الألباب ثم قال : ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٢﴾ جَنَّـٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّـٰتِهِمْ ۖ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَـٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ۚ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴾ (الرعد:٢٢-٢٤) .

أصناف الناس في الحياة :

وأول ما يجب تعلمه هنا : أن يعرف المسلم الهدف ، ويعرف الطريق ، يعرف غايته ، ويعرف طريقه ، فالناس أصناف شتى :

---

(١) رواه البيهقي في الشعب (١٢٤/٢) عن جابر ، وقال : هذا الحديث بهذا الإسناد منكر ، ورواه القضاعي في مسند الشهاب (١١٠/٢) عن أنس ، وقال الهيثمي في المجمع : رواه البزار وفيه سلامة ابن روح وثقه ابن حبان وغيره وضعفه غير واحد (٧٤٣/١٠) وقال صاحب تخريج الإحياء : أخرجه البزار من حديث أنس وضعفه ، وصححه القرطبي في التذكرة ؛ وليس كذلك ، فقد قال ابن عدي : إنه منكر (٧/٣) وضعفه الألباني في ضعيف الجامع (١٠٩٦) وقد تكلمنا عن هذا الحديث من جهة السند والمتن في كتابنا : فتاوى معاصرة ج٢/ ٧٣ وما بعدها . فليراجع .

الصنف الأول : هناك من يعيش في هذه الحياة لا يَعْرف له هدفاً ، ليس له غاية يعيش لها ، ويموت عليها ، هو حي كميت ، وموجود كمفقود ، لا يعرف لماذا يعيش ، ولا يعرف لماذا يموت ، ولا ماذا بعد الموت ، هو الذي يقول فيه الشاعر :

فهذا الذي إن عـاش لم ينتفـع بـه وإن مات لم تحزن عليـه أقاربـه

هذا صنف من الناس .

الصنف الثاني : وصنف من الناس يعيش لغاية ، ولكن غايته هي شهواته ولذائذه ، يعيش لبطنه ولفرجه ، كما قال الله تعالى : ﴿ **وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ** ﴾ (محمد:١٢) ، يعيش لبطنه ولفرجه ، وقد قال أحد الحكماء : من كان همه بطنه وفرجه ، فقيمته ما يخرج منهما! ويروى عن أبي نواس أنه قال :

إنمـا الـدنيا طعـام وشـراب ومنـام

فـإذا فاتـك هـذا فعلى الـدنيا السـلام

الدنيا أنك تأكل وتشرب ، وتنادم رفقاءك على الكأس ؛ فإذا فاتك هذا فعلى الدنيا السلام أي لا معنى للدنيا يومئذ ، هذا صنف من الناس ، صنف يعيش لشهواته ، ولبطنه ولفرجه .

الصنف الثالث : وهناك صنف آخر ، همه شيء آخر ، همه الجاه ، همه أن يكون له شأن في الناس ، أن يأمر وينهى ؛ كما سئل بعضهم : ما سعادتك ؟ قال : سعادتي في إعزاز الأصدقاء ، وإذلال الأعداء ، وقال الشاعر :

إن أنـت لم تنفـع فضـر فإنمـا يعيش الفتى كي ما يضـر وينفـع

هذا صنف مهمته الجاه في الدنيا ، أن يذكر اسمه ، أن يشار إليه بالبنان ، أن يقف الناس له قياماً ، إذا استأذن أذن له ، وإذا شفّع شفع ، وإذا قال استُمع ، هذا صنف .

الصنف الرابع : وصنف آخر غايته أن يجمع القناطير المقنطرة ؛ من الذهب والفضة ، أن يكون له غنى قارون ، أو مَنْ شاء مِنْ أولئك الأثرياء ، ومهما أُوتي فلن يشبع ، إن لعابه يسيل دائماً إلى الزيادة ، لا يقنع بقليل ، ولا يشبع من كثير ، شأنه شأن جهنم يقال لها : ﴿ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴾ (ق:٣٠) ، هذا يعيش في الدنيا يجمع ولا يشبع ، هو يعيش عيشة المحروم ، لأنه لا يحس بالرضا ، ولا يحس بالقناعة ، ولا يحس بالسكينة ، « لو كان لابن آدم واديان من مال لابتغى ثالثا ، ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب »[1] .

الصنف الخامس : وهناك صنف من الناس يعيش لغاية أسمى ، لغاية عظمى ، لهدف أكبر وأعلى من هذا كله . إنه يعيش للآخرة ، يعيش للحياة الباقية ، يعيش لربه لا لنفسه ، لقد تحرر من ذاتيته ، وعبّد نفسه لله ، تحرر من عبوديته للبشر ، ومن العبودية للحجر ؛ وما الذهب والفضة إلا حجران . تحرر من العبودية للذات ، من العبودية للأشياء ، من العبودية للأشخاص ، وجعل نفسه عبداً لله وحده ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١٦٢ لَا شَرِيكَ لَهُۥ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ (الأنعام:١٦٢،١٦٣) .

الإنسان الحقيقي :

هذا هو الإنسان الحقيقي ، الإنسان العظيم الذي أصبح يعيش لرسالة ، ويعيش لهدف في الحياة ، إنه هو الذي أجاب عن الأسئلة الخالدة[2] ، إجابة تشفي الصدور وتملأ النفوس ، الأسئلة الخالدة هي : (من أين؟ وإلى أين؟ ولم؟ وما أنا؟) من أين جئت؟ هل جئت بغير شيء ، أم خلقني خالق ، ودبرني مدبر؟

---

(١) رواه البخاري في الرقاق (٦٤٣٦) ومسلم في الزكاة (١٠٤٩) عن أنس ، وأحمد في المسند (٢١١١١) والترمذي في الزهد (٢٣٣٧) عن ابن عباس .

(٢) راجع كتابنا : (العبادة في الإسلام) ، وتحدثنا عن ذلك في الخطبة السابقة .

إن المؤمن استراح وأراح حينما قال : إنما جاء بي إلى هذا العالم خالق عظيم ، ورب حكيم ، خلقني لغاية ، وخلقني لرسالة ، ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴾ (الشعراء:٧٨-٨٢) ، هكذا عرف الإنسان المؤمن من أين جاء ، ومن الذي جاء به ، وإلى أين يذهب . أيعيش هذه المدة من الزمن سنين تقصر ، أو تطول ثم ينتهي ولا شيء بعد ذلك؟ يمشي على التراب ويأكل من التراب ، ثم يدفن في التراب ، ويأكله التراب ؛ وقد انتهى كل شيء؟ لا ، بل كما قال الله تعالى : ﴿ مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴾ (طه:٥٥) ، هذه التارة الأخرى هي المهمة ؛ لأنها الدار الباقية ، ﴿ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ ﴿٣٩﴾ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ (غافر:٣٩،٤٠).

هذا الإنسان عرف غايته وعاقبته بأنها الدار الآخرة الحياة الباقية ، والحياة الباقية فيها جنة ونار ، فيها ثواب وعقاب ، هو حريص على أن يكون من أهل الجنة ، الجنة تهون أمامها كل مغريات الدنيا ، كل ما يلهث الناس من أجله من هذه الشهوات ؛ كما قال الله تعالى : ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا (الحياة السفلى) وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴿١٤﴾ ۞ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ ۚ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴾ (آل عمران:١٤،١٥) .

لا بد من الإجابة عن الأسئلة المحيرة :

لا بد للإنسان أن يعرف غايته ، ما هي هذه الغاية؟ ولا بد أن يجيب عن هذه الأسئلة : من أين؟ وإلى أين؟ ولم؟ لماذا خلقت؟

أخلقت عبثاً ، وأعيش في هذه الدنيا عبثاً ، ثم تنتهي بالموت؟ كما قال بعض الناس : الدنيا أشغال شاقة ، وآخرها الإعدام . هل هو إعدام وانتهى الأمر؟ لا والله ، لا . إن الموت ليس نهاية المطاف ، إن الموت رحلة إلى حياة أخرى .

وما الموت إلا رحلـــة غـــير أنـــــها من المترل الفاني إلى المترل البـــاقي

لا معنى لهذه الحياة لو كنا خلقنا لهذه الأيام ، ثم تطوى صفحاتنا وتنتهي ، ويطوينا العدم ، لا . بل هناك حياة خالدة ، توفّى فيها كل نفس ما كسبت ، وتخلد في ما عملت ، ﴿ **فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ** ﴾ (الزلزلة:٧،٨) .

إن هناك أناسا مساكين؛ يعيشون في هذه الدنيا لا يعرفون لهم هدفا،لا يتذوقون لحياتهم معنى ، يحسون بالضياع والتفاهة ، أولئك الغربيون ، أكثر الغربيين الذين نراهم اليوم ، الذين وصلوا إلى الفضاء ، ووصلوا إلى الكواكب البعيدة وسخـــروا ما سخروا من هذه الطبيعة ، أكثر هؤلاء يعيشون ولا يعرفون لحياتهم معنى ، يحسون بالتفاهة ، يشعرون بالضياع ، ولذلك ترى كثيراً منهم يلجأون إلى الانتحار لأوهى الأسباب ، لأدنى الأشياء ، لأن حياته لا قيمة لها ، الإسلام أعطانا الشعور بنفاسة هذه الحياة . هذه الأيام المعدودة ، والأنفاس المحدودة ، والسنين المعدودة ، هذه لها قيمة كبيرة ، لأننا نزرع فيها اليوم ، لنحصد غداً ، نغرس اليوم لنجني الثمار في الآخرة ، فهذه الدنيا رغم قلة أيامها نفيسة جداً ، لأنه لا شيء غيرها ، هذا العمر عمر واحد ، ليس لنا عمران ، ولا ثلاثة . ولذلك كان عمرك نفيساً ، وكانت حياتك نفيسة ، لا بد أن تستغل أيامها ولياليها ، وساعاتها ودقائقهـــا وثوانيهـــا ، ولا تضيع شيئاً منها عبثاً ولا غفلة .

هذه هي الحياة التي نشعر بها ، نحن نعيش في دنيانـا لنبني لآخرتنـا ، نحـن لا نعيش للخلود ، وإنما نحن ضيوف هنا ، سنغادر هذه الدار إلى دارنا الحقيقية ، لا بد أن نجيب على هذه الأسئلة : من أين؟ وإلى أين؟ ولم؟

هذا ما يجب أن يعرفه كل سائر في هذه الطريق ؛ يعرف غايته ، لماذا يعيش؟ ما هي رسالته؟ ويعرف طريقه ، وهو الطريق المستقيم ؛ الصراط الذي

علمنا الله أن نسأله أن يهدينا إياه كل يوم في صلواتنا ، ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾ (الفاتحة:٦،٧)، المغضوب عليهم : الذين عرفوا طريق الحق وتركوه ، اتباعاً لأهوائهم ، وعصبية لأنفسهم . والضالين : الذين تاهوا عن طريق الحق ولم يعرفوه[1] . لا تسلك طريق هؤلاء ولا طريق هؤلاء . اسلك الصراط المستقيم ، الذي بعث الله به آخر رسله ، وأنزل به آخر كتبه ، وفصّل فيه الأحكام ، وبيّن فيه الحلال والحرام ، وأرشدك إلى طريق الهدى ، وميّز الرشد من الغيّ ، والهدى من الضلال .

عليك بهذا الطريق ، وامض وراء صاحب هذا الطريق ، محمد ﷺ ؛ فهو الهادي إلى هذا الصراط ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٥٢ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴾ (الشورى:٥٢،٥٣) .

علّم النبي ﷺ أصحابه هذا الطريق ، فخط لهم خطاً مستقيماً على الرمل ـ وسيلة الإيضاح عنده كانت الرمل ـ خط لهم خطاً وقال :« هذا صراط الله مستقيما أو سبيل الله مستقيما ، ثم خط عن يمينه وعن شماله خطوطاً متعرجة ـ منحرفة ملتوية ـ وقال : « هذه سبل على رأس كل منها شيطان يدعو إليه » ، ثم تلا قول الله تعالى ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾(الأنعام:١٥٣) »[2].

---

(١) ذكر ابن كثير في تفسير قوله تعالى : ﴿ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾ (الفاتحة:٧) أن طريقة أهل الإيمان مشتملة على العلم بالحق والعمل به ، واليهود فقدوا العمل ، والنصارى فقدوا العلم ؛ ولهذا كان الغضب لليهود ، والضلال للنصارى ، لأن من علم وترك استحق الغضب ، بخلاف من لم يعلم. والنصارى لما كانوا قاصدين شيئًا لكنهم لا يهتدون إلى طريقه ، لأنهم لم يأتوا الأمر من بابه ، وهو اتباع الرسول الحق ، ضلوا. انظر : تفسير ابن كثير (١/ ٥٢).

(٢) رواه أحمد (١٥٢٧٩) عن جابر ، وقال مخرّجوه : حسن لغيره وهذا إسناد ضعيف لضعف مجالد ، ورواه ابن ماجه في المقدمة (١١) وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه (١١) ونصه : عن جابر بن عبد الله قال : كنا عند النبي ﷺ فخط خطا ، وخط خطين عن يمينه ، وخط خطين عن يساره ، ثم وضع يده في الخط الأوسط فقال :« هذا سبيل الله ». ثم تلا هذه الآية ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ﴾ (الأنعام:١٥٣).

الطريق الوسط ، الصراط المستقيم ، اتبعوه . إياكم والمنعرجات ، والملتويات ، والطرق المنحرفة هنا وهناك ، فإن على رأس كل منها شيطاناً يدعو إليه ، سيروا وراء محمد ﷺ ، اعرفوا الغاية .

أيها المسلم اعرف غايتك ، وحدد هدفك ، ثم اعرف طريقك ، وسر في هذا الطريق ، ولا تمل عنه يميناً ولا شمالاً تهتدي ، ﴿ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ (آل عمران: ١٠١) .

أقول قولي هذا ، وأستغفر الله تعالى لي ولكم ، فاستغفروه ؛ إنه هو الغفور الرحيم ، وادعوه يستجب لكم .

* * *

● **الخطبة الثانية :**

أما بعد . . . فيا أيها الإخوة المسلمون :

الفتنة نائمة لعن الله من أيقظها :

في الأسبوعين الماضيين حيث لم يقدر لي أن أعتلي هذا المنبر حدثت أحداث تدمي القلب ، وتدمع العين ، حدثت تفجيرات هائلة سقط من ورائها مئات من الناس من الضحايا الأبرياء ؛ الذين لا ناقة لهم في السياسة ولا جمل ، « ولا هُمْ في العير ، ولا في النفير »، حدثت أحداث وتفجيرات في كربلاء ، وفي الكاظمية[1]، في بغداد ، في موسم عاشوراء ، سقط المئات من ورائها .

من الذي فعل هذه الأحداث؟ من الذي سفك هذه الدماء؟ من الذي صنع هذه التفجيرات؟ تتضارب الأقوال ، وتتشابك الأعمال ، ولا يستطيع أحد أن يجزم

---

(١) وقعت تفجيرات كربلاء والكاظمية في ١/٣/ ٢٠٠٤م ، وذكرت الأنباء أن خمسة انفجارات على الأقل هزت المدينة التي أمها مليونا شيعي على الأقل من داخل العراق وإيران وبلدان أخرى للاحتفال بيوم عاشوراء ، وقد راح ضحية هذه التفجيرات قرابة مائة قتيل وعشرات الجرحى . للمزيد راجع موقع الجزيرة نت (www.aljazeera.net).

من وراء هذه الأشياء . من المستفيد من وراء هذا كله؟ من وراء إشعال النار؟ من الذي يوقظ الفتنة النائمة؟ والفتنة نائمة لعن الله من أيقظها . من الذي يريد أن يمزق أوصال الشعب العراقي ، ويضرب بعض أبنائه ببعض؟

الأصل في الدماء الحرمة :

لا يمكن أن يقدم على هذا إنسان مسلم يعرف ربه ، ويعرف دينه ، ويعرف قومه ، ويعرف المصلحة ، ويعرف المفسدة . تشير الأصابع أحياناً إلى الموساد ، وتشير إلى جهات مختلفة ، وتشير أحياناً إلى بعض المسلمين . هل بلغت الغفلة بالمسلمين أن يفعلوا هذا؟ إن الأصل في الدماء هو الحرمة . من الذي فعل هذا؟

ثم من الذي فعل الأحداث الهائلة التي حدثت في أسبانيا[1] ، تفجير القطارات ، قطارات الركاب المدنيين؟ هذه القطارات لا تحمل جنوداً عسكريين ، إنها تحمل أناساً يذهبون إلى أعمالهم غادين رائحين ، مصبحين ممسين ، يأكلون رزقهم بكد يمينهم وعرق جبينهم . هل هؤلاء أعداء للمسلمين؟ يقال : إن القاعدة هي التي فعلت ذلك ، ويقال كذا ، ويقال كذا . . . . أنا أستغرب من هذه الدماء التي تسفك ، هؤلاء الذين قُتِلُوا في القطارات ؛ لعلهم كانوا في المسيرات المليونية التي اجتاحت مدن أسبانيا تعترض على حرب العراق ، تقف ضد أمريكا ، وتقف ضد حكوماتها . كيف نستبيح دماء هؤلاء؟

منذ يومين دُمّر فندق في بغداد ، فندق جبل لبنان ، ورأيت في التلفزيون بعيني الفندق ، وهو ينهار على من فيه ، هُدّم على كل من فيه ، تنتشل الجثث ليس فيهم جندي من جنود الاحتلال ، من الذي وراء هذا كله؟ من الذي يستبيح

---

(١) كانت أحداث أسبانيا في ٣/١١/ ٢٠٠٤م ، حيث وقعت أربعة تفجيرات ، في أربعة قطارات ، وكانت حصيلة هذه التفجيرات قرابة (٢٠٠) قتيلا ، وقرابة (٢٠٠٠) جريحا. للمزيد راجع موقع الجزيرة نت (www.aljazeera.net).

الدماء المعصومة؟ الأصل في الدماء عندنا نحن المسلمين أنها شديدة الحرمة ، لها حرمة هائلة ، حتى إن القرآن مع كتب السماء يجرمها تجريماً ، ويحرمها تحريماً ويقرر أنه ﴿ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ﴾ (المائدة:٣٢) ، لا يجوز أن تمتد يد لتقتل نفساً إلا بسبب معلوم . بغير هذا لا يجوز .

وللحيوان حرمة :

حتى إن الإسلام لم يقف عند حرمة الأمم البشرية ؛ بل حرّم الأمم الحيوانية ، جعل لها حرمتها ، النبي عليه الصلاة والسلام قال عن الكلاب ، وقد آذتهم الكلاب الضالة ، ورأى من إيذائها ما رأى فقال :« لولا أن الكلاب أمة من الأمم ، لأمرت بقتلها »[1] الكلاب أمة ، يشير إلى قول الله تعالى في سورة الأنعام ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ﴾ (الأنعام:٣٨) ، وأعلم النبي ﷺ : أن امرأة دخلت النار في هرة حبستها حتى ماتت[2] .

أخلاقنا الحربية :

هكذا الإسلام ؛ حتى في الحروب الرسمية ، التي تواجه فيها الجيوش الإسلامية جيوش الأعداء ، الذين يقاتلون المسلمين ، ويعتدون عليهم ، حرّم الله تعالى أن يقتل إلا المقاتل ﴿ وَقَٰتِلُوا۟ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴾ (البقرة:١٩٠) ، ﴿ ٱلشَّهْرُ ٱلْحَرَامُ بِٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْحُرُمَٰتُ قِصَاصٌ ۚ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ۚ

---

(١) رواه أحمد في المسند (١٦٧٨٨) وقال مخرّجوه : إسناده صحيح رجاله ثقات رجال الشيخين ، و ابن ماجه في الصيد (٣٢٠٥) و أبو داود في الصيد (٢٨٤٥) والترمذي في الأحكام والفوائد (١٤٨٦) والنسائي في الصيد والذبائح (٤٢٨٠) عن عبد الله بن مغفل .

(٢) رواه البخاري في بدء الخلق (٣٠٧١) و مسلم في السلام (٢٢٤٢) عن ابن عمر .

﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ (البقرة:١٩٤) ، ولذلك نهى رسول الله ﷺ عن قتل النساء والصبيان والشيوخ . ورأى في إحدى الغزوات امرأة مقتولة فغضب وأنكر على أصحابه وقال :« ما كانت هذه لتقاتل[١] » ، وشدد بعدها في النهي عن قتل النساء والصبيان . وهكذا كان الصحابة والخلفاء الراشدون يوصون قوادهم . فهذا أبو بكر يوصي يزيد وجنده : أن لا يقتلوا امرأة ، ولا يقتلوا وليداً ، ولا يقتلوا شيخاً ، ولا يهدموا بناء . وقال : ستجدون رجالاً فرغوا أنفسهم في الصوامع (الرهبان) فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له[٢] .

وقال عمر : لا تقتلوا الحراثين ـ الزراع الفلاحين ـ الذين لا ينصبون لكم الحرب ، ونهى أن يعتدى على التجار في متاجرهم[٣] . كل المدنيين الذين لا شأن لهم في الحرب لا يجوز أن يمسوا بسوء ، هذا في الحروب الرسمية ، التي تتواجه فيها الجيوش وتلتقي فيها الصفوف ، فكيف في غير هذا؟

لا بد من رعاية الأخلاق في الغايات وفي الوسائل :

أنا أعجب من مسلمين يفعلون هذه الأشياء ويستحلون الدماء . بعض الناس يعتذرون لهؤلاء بأن نواياهم حسنة ، وأهدافهم نبيلة ، وأنهم يريدون خدمة الإسلام ، والدفاع عن المسلمين ، والوقوف في وجوه الطغاة . ولكن أيها الإخوة ـ نحن المسلمين ـ لا بد عندنا من رعاية الأخلاق في الغايات وفي الوسائل ،

---

(١) رواه أحمد في المسند (١٥٩٩٢) ، وقال مخرِّجوه : صحيح لغيره وهذا إسناد حسن ، ورواه ابن ماجه في الجهاد (٢٨٤٢) وأبو داود في الجهاد (٢٦٦٩) والنسائي في الكبرى في السير (١٦٨/٥) ، وابن حبان (١١٠/١١) في السير ، عن رباح بن ربيع ، وصححه الألباني في صحيح أبي داود (٢٣٢٤).

(٢) رواه مالك في الجهاد (٩٦٥) وعبد الرزاق في مصنفه (١٩٩/٥) والبيهقي في الكبرى كتاب السير (٨٩/٩) عن أبي بكر.

(٣) رواه سعيد بن منصور في سننه (٢/ ٢٣٩) وابن أبي شيبة (٣٣٧٩٢) وفيه : عن زيد ابن أبي وهب قال : كتب عمر بن الخطاب رضي الله عنه : لا تغلّوا ، ولا تغدروا ، ولا تمثلوا ، ولا تقتلوا وليدا ، واتقوا الله في الفلاحين الذين لا ينصبون لكم الحرب .

نحن لا نقر أخلاقية الغايات ولا أخلاقية الوسائل . لا . ليس عندنا مبدأ ميكافيللي : الغاية تبرر الوسيلة ، بل نحن ندعو إلى شرف الغاية ، وطهر الوسيلة . لا بد من الغاية الشريفة والوسيلة النظيفة . لا نقبل أبداً ما يقوله هؤلاء : إن غايتنا طيبة وشريفة ، فنحن نستبيح كل شيء . لا . نحن مقيدون بشرع الله ، بأحكام الله . وأحكام الله تلزمنا بأن نصون الدماء ، ونرعى الحرمات ، ولا نتجاوز فيها ، وإلا كنا مسئولين أمام الله .

هؤلاء الذين فعلوا ما فعلوا في أسبانيا ؛ ألا يظن هؤلاء أنهم اعتدوا على حرمات ، وعلى أناس لا ذنب لهم ، ثم إنهم آذوا إخوانهم ، هناك المسلمون الذين يعيشون في أسبانيا ويحاولون أن يندمجوا في المجتمع ، وقد رأيتهم بنفسي ، ما ذنب هؤلاء؟ حتى قال قائلهم : إننا لم نعد قادرين على الخروج إلى المجتمع لنشتري ما نأكله ، هذا الخوف نتيجة هذا العمل ؛ عمل أحمق ، لأن صاحبه لا ينظر إلى العواقب .

ثم إن هؤلاء يضرون بإخوانهم المسلمين في أوروبا جميعاً ، ويضرون الإسلام نفسه ، حيث ألصقوا بالإسلام تهمة الإرهاب ، وتهمة استباحة الدماء ، والإسلام لا يرى ذلك ، الإسلام يشدد كل التشديد في أمر الدماء ، ولا يجوز أن تستباح نفس إلا بحقها ، ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا ﴾

(الإسراء:٣٣)

* * *

(١٢)

حدد مصدر معرفتك بدينك[١]

● **الخطبة الأولى :**

أما بعد . . . فيا أيها الإخوة المسلمون :

تزكية النفوس لا تكون إلا بإصلاح القلوب :

لا زال حديثنا موصولاً عن تزكية الأنفس ، عن تزكية هذه المضغة ، التي « إذا صلحت صلح الجسد كله ، وإذا فسدت فسد الجسد كله ، ألا وهي القلب»[٢] . الإنسان ليس هو هذا الهيكل من : اللحم والدم والعظم ، والأعصاب والأجهزة والخلايا . هذه توجد عند الحيوانات ، كما توجد عند الإنسان . إنما الإنسان هو ذلك الجوهر الروحاني ؛ الذي به تميز ، وصار به إنسانا ، والذي من أجله أسجد الله له الملائكة تكريماً وتشريفاً ، ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ ﴾ ـ بعد أن خلقه من طين ، أو من صلصال من حمأ مسنون ـ قال : ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴾ (الحجر:٢٩) .

---

(١) ألقيت هذه الخطبة بمسجد عمر بن الخطاب بالدوحة في يوم الجمعة ١٩ من صفر ١٤٢٥هـ الموافق : ٩ إبريل ٢٠٠٤م .

(٢) جزء من حديث النعمان بن بشير (الحلال بين والحرام بين) متفق عليه : رواه البخاري في الإيمان (٥٢) ومسلم في المساقاة (١٥٩٩) وأحمد في المسند (١٨٣٦٨) وابن ماجه في الفتن (٣٩٨٤) وأبو داود في البيوع والإجارات (٣٣٢٩) والترمذي في البيوع (١٢٠٥) والنسائي في البيوع (٤٤٥٣).

من أجل ذلك نُعنى كل العناية بإصلاح هذه المضغة ، أو هذا الجوهر ، أو هذا الساكن في هذا الغلاف الظاهري . القلب ، النفس ، الروح ، الفؤاد ، العقل . . سمه ما تسميه ، فعليه مدار صلاح الإنسان أو فساده ، مدار حياة الإنسان أو موته ، ﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ (الأنعام:١٢٢) ، الحياة أو الموت هنا : هو حياة القلوب وموتها ، وإنما ينجو الإنسان في الآخرة بهذا القلب إذا كان قلبا سليما ، وقلبا منيبا . له الحق أن يفوز بالجنة ، وأن ينجو من النار ﴿ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ﴾ (آل عمران:١٨٥) .

سيدنا إبراهيم حينما دعا ربه قال : ﴿ وَلَا تُخْزِنِى يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ (الشعراء:٨٧-٨٩) . قلب سليم من الشرك ، قلب سليم من النفاق ، قلب سليم من الرذائل . القلب السليم : هو الذي ينجو من النار ، والقلب المنيب هو الجدير بأن يدخل الجنة ، ﴿ مَّنْ خَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ۖ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ ﴾ (ق:٣٣،٣٤) ، من هنا كانت عنايتنا بهذه التزكية .

محطتنا السابقة : (العلم) :

وذكرنا فيما ذكرنا أن أول محطة في هذا الطريق ، الطريق إلى الله ، الطريق إلى الجنة ، الطريق إلى الرضوان ، الطريق إلى التزكية ، أول محطة هي : محطة العلم والمعرفة ، أول ما يجب عليك أن تتفقه في دينك «من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين»[1]. ﴿ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ

---

(١) متفق عليه : رواه ا البخاري في الاعتصام بالكتاب والسنة (٧٣١٢) ومسلم في الزكاة (١٠٣٧) وأحمد في المسند (١٦٨٣٤) وابن ماجه في افتتاح الكتاب (٢٢١) والطبراني في الكبير (٣٢١/١٩) عن معاوية.

وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾ (التوبة:١٢٢)، لأنك إذا لم تتفقه في دينك ، إذا لم تسر في طريقك على بينة ؛ ربما شرّقت وأنت تريد الغرب ، أو غرّبت وأنت تريد الشرق ، ربما عملت العمل تظنه عبادة وهو بدعة ، تظنه حلالاً وهو حرام ، تعتقده حقاً وهو باطل .

لا بد من العلم ، ليعرفك هذا كله ، لا بد أن تكون على بينة من ربك ، ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ (يوسف:١٠٨) هذا ما يريده الإسلام ؛ أن تبدأ بالعلم أولاً حتى لا تضل وأنت لا تدري ، ﴿ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا ۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۖ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴾ (فاطر:٨) ، ﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴾ (الكهف:١٠٣،١٠٤) .

قال الحسن البصري : اطلبوا العلم طلباً لا يضر بالعبادة ، واطلبوا العبادة طلباً لا يضر بالعلم ، فإن قوماً طلبوا العبادة قبل أن يطلبوا العلم ؛ فخرجوا بأسيافهم على أمة محمد ﷺ ، ولو طلبوا العلم أولاً لدلّهم على غير ما فعلوا[1] .

طالب العبادة بغير علم يفسد أكثر مما يصلح ، هذا أمر مهم ، يريد بهؤلاء الذين خرجوا بأسيافهم على أمة محمد ﷺ الخوارج ، وقد كانوا قوماً صواماً قوّاماً عباداً قراءً للقرآن ولكن آفتهم في فقههم ، لم يحسنوا الفقه للإسلام ، لم يحسنوا فهم القرآن ، كانوا يقرؤونه ولم يتجاوز حناجرهم ، يتلونه بالحناجر ولم يدخل في أعماق العقول والقلوب ، فلهذا فعلوا ما فعلوا[2] .

---

(١) رواه ابن أبي شيبة في مصنفه (٧/ ١٨٧).

(٢) جاءت الأحاديث الصحاح بوصف الخوارج ، ومن ذلك قوله ﷺ لمن اعترض على قسمته : « يخرج قوم تحقرون صلاتكم مع صلاتهم ، وصيامكم مع صيامهم ، وأعمالكم مع أعمالهم ، يقرأون القرآن لا يجاوز حناجرهم ، يمرقون من الدِّين كما يمرق السهم من الرَّمِيَّة ...» متفق عليه : رواه البخاري في فضائل القرآن (٥٠٥٨) ومسلم في الزكاة (١٠٦٤) ومالك في القرآن (٤٧٨) وأحمد في المسند (١١٥٧٩) وابن ماجه في المقدمة (١٦٩) عن أبي سعيد .

حدد مصادر معرفتك بدينك :

أول ما يجب عليك أن تحدد مصادر معرفتك . من أين تأخذ دينك؟

قال السلف ﷺ : إن هذا العلم دين فانظروا عمن تأخذون دينكم[1] . يقولون هذا لطلاب الحديث ، انظر عمن تأخذ دينك ، لا تأخذ كحاطب الليل ؛ يحمل الحزمة من الحطب وفيها أفعى ـ حية ـ وهو لا يدري .

ميّز عمن تأخذ دينك . هناك أناس يأخذون أحاديث موضوعة ، وأحاديث واهية ومنكرة ، وأحاديث لا أصل لها ، لا زمام لها ، يبنون عليها أفكارهم وسلوكهم وتصرفاتهم ويؤسسون عليها علاقاتهم ، وهي لا تستحق شيئاً من هذا .

أفكار بعض الصوفية المنحرفة[2] :

هناك أناس يفهمون القرآن فهماً معوجاً ، يقيمون عليه حياتهم . ولم يأخذوا ذلك عن الثقات ، لا بد إذن أن تحدد مصدرك . بعض الصوفية المنحرفين قالوا : نأخذ عن قلوبنا ولا نأخذ عن العلماء ، نحن في غنى عن العلماء . وكان بعضهم يقول له : اذهب وخذ عن العالم الفلاني ليحدثك عمن أخذ (حدثني فلان عن فلان) . فيقول له : أنا لست في حاجة إلى فلان ولا إلى فلان ، كان يقول : ماذا يصنع بعبد الرزاق من يأخذ عن الخلاّق؟ يقول حدثنا عبد الرزاق عن فلان عن فلان ، فهو يتصل بربنا مباشرة ، ولذلك يقول بعضهم : حدثني قلبي عن ربي .

---

(١) من كلام محمد بن سيرين ، وقد سبق تخريجه.

(٢) للشيخ رأي معروف في التصوف والصوفية ، وهو غاية في الإنصاف ، وقد ذكره في عدد من كتبه ، وأهمها :

١- موقف الإسلام من الإلهام والكشف والرؤى ومن التمائم والكهانة والرقى .

٢- الحياة الربانية والعلم .

٣- الإخوان المسلمون سبعون عاماً في الدعوة والتربية والجهاد .

٤- ابن القرية والكتاب « مذكرات الشيخ » .

٥- فتاوى معاصرة / ج١ .

هذا مرفوض ، لا بد لنا من واسطة ، لماذا أرسل الله رسله مبشرين ومنذرين ، وألزم الناس أن يتبعوهم ؛ لأن العصمة في اتباعهم ، والنجاة في السلوك وراءهم؟ قال الجُنَيْد رحمه الله : كل الطرق مسدودة إلا من سار وراء محمد ﷺ.

كان شيخ الصوفية والمربين في عصره (الجُنَيْد) يقول : من لم يقرأ القرآن ويسمع الحديث فليس منا .

لا بد أن تأخذ من القرآن ، ومن الحديث ، ولا تكن من أولئك الذين يُحَكِّمون أذواقهم ؛ فكثيراً ما تؤدي إلى الضلال ، حتى انتهى هذا إلى بعضهم فقالوا : من نظر إلى الخلق بعين الشريعة مقتهم ، ومن نظر إليهم بعين الحقيقة عذرهم[1] .

إذا نظرت إليهم بعين الشريعة تقول : هذا صالح ، وهذا فاسد ، هذا مؤمن وهذا كافر ، هذا بر وهذا فاجر ، وهذا معروف وهذا منكر ، وهذا حلال وهذا حرام . شريعة مميزة ، فتقول : أحب الصالح وأبغض الطالح ، كن مع البر ولا تكن مع الفاجر ، هذا نظر الشريعة . لكن أهل الحقيقة يقولون : من نظر إلى الخلق بعين الحقيقة عذرهم ، لأنهم جميعاً ينفذون إرادة الله !

هل يحدث شيء في الكون بغير إرادة الله؟ كفر فرعون نفسه بإرادة الله ، كفر إبليس نفسه بإرادة الله ، الأمريكان في العراق ينفذون إرادة الله ، الصهاينة في فلسطين ينفذون إرادة الله ، صدام حسين نفذ إرادة الله ، كل هؤلاء ينبغي أن تعذرهم ! !

وهذا هدمٌ للدين بالكلية ، لأن الدين قائم على أن هناك طاعة ومعصية ، وإيماناً وكفراً ، وبرا وفجورا ، وأشياء يحبها الله ، وأشياء يبغضها الله ، وأن

---

(١) ذكر ابن القيم كلام هؤلاء ، ورد عليهم في كتابه : مدارج السالكين ، ابن القيم ، ج٢ / ٤٦٩ وما بعدها ، فليراجع .

هناك ثوابا وأن هناك عقابا ، وأن هناك جنة وأن هناك نارا ، لا بد من معرفة الحق من الباطل ، ومعرفة الحسن من القبيح ، ومعرفة الخير من الشر ، ومعرفة الهدى من الضلال ، ومعرفة الحلال من الحرام . وهذا لن يكون إلا إذا أخذنا عن رسول الله ﷺ ﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ ﴾ (الحشر:٧) ، ﴿ مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴾ (النساء:٨٠) ، ولذلك تلخص الإسلام في كلمتين حوتهما كلمة الإخلاص ، كلمة التوحيد ، كلمة الشهادة ؛ حوتهما تلك الكلمة (أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمداً رسول الله) .

أشهد أن لا إله إلا الله : تعرفك من المعبود . تعرفك من الذي يستحق العبادة؟ هو الله الخالق الرازق المحيي المميت المدبر للأمر . وعمن تأخذ العبادة له؟ كيف تعبده؟ كيف ترضيه؟ كيف تسلك الطريق التي ترضيه؟ عن طريق رسوله محمد ، محمد رسول الله ، فكلتا الشهادتين تلازم الأخرى وتكملها .

أدعياء لتضليل عقل المسلم :

أول ما ينبغي للإنسان : أن يحدد المصدر الذي يأخذ عنه . هناك طوال التاريخ أناس يحاولون أن يخترقوا هذا الجدار الحاجز ، أن يدخلوا إلى عقل المسلم ويضلوه عن سبيل الله ، وفي كل عصر أدعياء . هناك من يريد أن يأخذ الإنسان عن طريق العقل أو الفلسفة ، ظهر في الحياة الإسلامية ، وفي الحضارة الإسلامية فلاسفة ؛ أخذوا أفكارهم من الحضارة الغربية ، أو من الفلسفة الغربية ، فلسفة الإغريق واليونان ، لم يعد محمد ﷺ هو معلمهم الأول ، بل كان معلمهم الأول : أرسطوطاليس ، فما جاء به أرسطوطاليس هو الحق ، وهو الصواب ، وما خالفه من تعاليم القرآن والسنة يجب أن يؤول . هذا ضلال مبين .

المبالغة في الإيمان بالعقل تضر :

افتتن بذلك أناس كبار من عباقرة المسلمين ، وظنوا أن هذه الفلسفة ؛ التي برعت في الرياضيات والهندسة والعلوم الكونية ، لا يمكن أن تخطئ في الإلهيات ، وكان هذا موطن الضلال ، ليس كل من أصاب في الرياضيات أو الطبيعيات يصيب في الإلهيات ، الإلهيات يجب أن تؤخذ عن الوحي المعصوم ، ولذلك أوّلوا القرآن ، وأوّلوا السنة ، وأوّلوا البعث الجسماني ، وأنكروا أن هناك بعثاً للأجساد ، وأن هناك جنة ؛ فيها أكل وشرب وحور عين ، وأن هناك نارا فيها عذاب وزقوم وحميم . . . وكذا وكذا .

وقد تبين فيما بعد ؛ أن كثيراً مما ظنوه حقائق علمية لم تعد حقائق علمية ، كانوا يقولون : العناصر التي يقوم عليها الكون أربعة : الماء والهواء والتراب والنار ، ثم أصبح التلميذ في المدارس الابتدائية يعرف أن العناصر أكثر من مائة ، وأن التراب ليس عنصراً ؛ فهو مركب من عناصر كثيرة ، والماء مركب من عنصرين ، والهواء من عدة عناصر ، وهكذا . . . كانوا يقولون : الأفلاك أجسام لا تقبل الخرق ولا الالتئام ، والآن انظروا كيف وصل الإنسان إلى القمر ، وكيف ذهب إلى المريخ ، وكيف يطمع فيما هو أبعد .

الفتنة بالعقل لا ينبغي أن تضل المسلم على أن يعرف طريقه . في عصرنا هذا أناس اتخذوا الغرب معبوداً لهم ، اتخذوه صنماً كما اتخذ الوثنيون من قبل الأصنام يعبدونها ، ويسألونها أن تجلب لهم النفع ، وأن تدفع عنهم الضر ، وأن تشفي لهم المرضى إلى آخره ، هؤلاء اتخذوا من الغرب إلها ؛ يسيرون وراءه شبرا بشبر ، وذراعا بذراع[1] . دعاة العلمانية في بلادنا هؤلاء يتعبدون ، ولكن

---

(١) إشارة إلى قوله ﷺ : « لتتبعنَّ سَنَنَ مَن قبلكم شبرًا بشبر ، وذراعًا بذراع ، حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه ، قالوا : يا رسول الله ، آليهود والنصارى ؟ ! قال : « فمن ؟ ! » متفق عليه : رواه البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٤٥٦) ومسلم في العلم (٢٦٦٩) وأحمد في المسند (١١٨٩٧) عن أبي سعيد الخدرى .

معبودهم ليس هو الله ؛ الذي يؤخذ منه الأمر والنهي ، والتحليل والتحريم ، ولكن اتخذوا هؤلاء أرباباً من دون الله ، فما أحلوا لهم أحلوه ، وما حرموا عليهم حرموه . لا بد أن يحكم الإنسان عمن يأخذ طريقه .

البرمجة العصبية وما وراءها :

هناك أناس في عصرنا يريدون أن يدخلوا على المسلمين بطرق شتّى ، من هؤلاء غربيين يدخلون على بعض المثقفين المسلمين ؛ عن طريق ما يُسمى البرمجة اللغوية العصبية ، وهذا يعني أنهم يريدون أن يدخلوا على المسلم ليغسلوا دماغه ، ويلقنوه أفكاراً في عقله اللاواعي ، ثم في عقله الواعي بعد ذلك ، مفادها : أن هذا الوجود وجود واحد ، ليس هناك رب ومربوب ، وخالق ومخلوق ، هناك وحدة في الوجود ، الأفكار القديمة التي قال بها دعاة وحدة الوجود يقول بها هؤلاء ، عن طريق هذه البرمجة التي تقوم على : الإيحاء والتكرار ، وغرس الأشياء في النفوس .

وهم يقولون : نحن لا علاقة لنا بالدين ، نحن عندنا برامج نعلمها للناس ، ولكن وراءهم أهدافا خبيثة ، ومقاصد بعيدة ، كل هذه ألوان من الغزو ؛ يراد بها غزو العقل المسلم .

الغاية هي الله :

ولذلك أول ما ينبغي أن نحرص عليه ، وأن نؤكده : أن تعرف أيها المسلم غايتك ، وتعرف طريقك ، الغاية هي : الله ، الغاية هي : رضوان الله ، الغاية هي : مثوبة الله ﴿ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴾ (النجم:٤٢) ، الله هو المعبود بحق ، ولا معبود سواه ، وبهذا بُعث الرسل ، وأُنزلت الكتب ، وحقت الحاقة ، ووقعت الواقعة ، وقامت سوق الجنة والنار ، كل رسل الله جاءت تنادي بهذه الحقيقة أن لا إله إلا الله ، ﴿ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ﴾ (الأعراف:٥٩)[1] .

---

(١) هذه الجملة جاءت على لسان كثير من الأنبياء ، وقد تكررت في القرآن : (٨ مرات) ، في الأعراف (٤ مرات) :٥٩ ، ٦٥ ، ٧٣ ، ٨٥ ، وفي هود (٣ مرات) ٥٠ ، ٦١ ، ٨٤ ، ومرة واحدة في المؤمنون :٢٣.

لا بد من توحيد الألوهية :

الإيمان بوجود الله فطرة ، لم يُعرف في التاريخ قوم ألحدوا وأنكروا وجود الله إلا فئات نادرة ، ولكن الذي أضل البشرية طوال تاريخها هو الشرك ، الناس الذين أشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا ، فمنهم من عبد الشمس والقمر ، ومنهم من عبد النجوم ، ومنهم من عبد الأشجار ، ومنهم من عبد الأبقار ، ومنهم من عبد الشيطان ، ومنهم من عبد الجن ، ومنهم من عبد البشر ، هذا طوال التاريخ ، ضل الناس عن هذه الحقيقة ، ولذلك كانت مهمة الرسل الأولى : أن يردوا الناس إلى التوحيد ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ ﴾ (النحل:٣٦) ، ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴾ (الأنبياء:٢٥) ، هذه هي الحقيقة الكبرى ، ولذلك كان من أول الأشياء التي حرص القرآن على أن يعلمها للناس حقيقة التوحيد ﴿ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ (محمد:١٩) ، هذا أمر من الله لرسوله : أن يعلم . أول ما ينبغي للإنسان أن يعلمه : ﴿ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ (محمد:١٩) ، أن يعلم الله بأسمائه الحسنى وصفاته العلى ، ﴿ ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (المائدة:٩٨) ، ﴿ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ ۚ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴾ (البقرة:٢٣٥) .

هذا العلم مهم جداً ، أن تعلم من تعبد ، وصفات من تعبد ، وأسماء من تعبد ، وأن تعلم حقارة الدنيا ، التي تغر الناس ، التي تعمي الناس عن رؤية مصايرهم ، رؤية مستقبلهم ، الناس يبحثون عن المستقبل ، ولكن كل المستقبل الذي يبحث عنه الناس مستقبل هذه الدنيا ، ماذا ستكون في المستقبل؟ في أي مركز؟ وفي أي وظيفة؟ وكم تجمع من المال؟ وكم تبني من القصور؟

المستقبل الحقيقي هو الجنة :

المستقبل الحقيقي يتمثل في دار الخلود ، في مصيرك : أهو جنة أم نار؟ هذا هو المصير العظيم ، هذه هي القضية المصيرية ، والقضية المستقبلية الأولى ،

إلام تصير أيها الإنسان؟ إلى دار نعيم ، أم إلى دار جحيم ؟ ﴿ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ﴿١٤﴾ يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿١٥﴾ وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَآئِبِينَ ﴿١٦﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٧﴾ ثُمَّ مَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٨﴾ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا ۖ وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ ﴾ (الانفطار:١٣-١٩) . اعرف مستقبلك ، اعمل لمستقبلك ، فكّر في مستقبلك ، ماذا أعددت لغدك؟

ماذا أعددت لغدك؟

النبي ﷺ وعظ بعض الشباب فقال «اغتنم خمسا قبل خمس : شبابك قبل هرمك ، وصحتك قبل مرضك ، وغناك قبل فقرك ، وحياتك قبل موتك ، وفراغك قبل شغلك»[1] ، خمسة أشياء ، اغتنم هذه قبل هذه ، اعمل لمصيرك ، اعمل لمستقبلك ، إذا عرفت غايتك ، وعرفت أنها : الله ، وحددت غايتك ؛ فقد سلكتَ نصف الطريق ، أكثر الناس يضيعون ؛ لأنهم لا يعرفون لهم غاية ، لا يَعرف المرء له هدفاً في الحياة ، إنه يعيش لأشياء تافهة لا تساوي شيئاً . أيها الإنسان الذي ملّكه الله العقل ، وملّكه المواهب والقدرات ، وسخر له ما في السماوات وما في الأرض ، وبعث له الرسل ، وأنزل عليه الكتب .

أيها الإنسان ما هي غايتك؟ اعرف أن غايتك الأولى : هي الله ، أن تصل إلى رضوان الله ، أن تحب اللهَ ويحبك ، أن تتقرب إلى الله بما يرضيه . إذا عرفت هذه الغاية ، فقد بدأت الطريق الصحيح ، بدأت تسلك الطريق الصحيح ، أهمّ شيء : أن تعرف هذه الغاية ، يقول الشاعر :

لكل شيء إذا فارقته عوض ... وليس لله إن فارقت من عوض

---

(١) رواه الحاكم (٣٤١/٤) عن ابن عباس وقال : صحيح على شرط الشيخين ووافقه الذهبي ، ورواه البيهقي في الشعب (٢٦٣/٧) وقال العراقي في تخريج الإحياء : أخرجه ابن أبي الدنيا بإسناد حسن (١٩٨/٤) وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٣٣٥٥).

كل شيء يمكن أن يعوض ؛ المال يعوض ، المناصب تعوض . إلا معرفة الله ؛ إذا ذهبت منك ذهب كل شيء ، ولذلك يقول بعض الصالحين[1] يناجي ربه : إلهي ! ماذا وجد من فقدك؟ وماذا فقد من وجدك؟ لقد خاب من رضي بك بَدلا ، وخسر من بغى عنك حولا ، عميت عين لا تراك عليها رقيبا قريبا ، وخسرت صفقة عبد لم تجعل له من حبك نصيبا .

اكسب رضا الخالق تسترحْ وترحْ :

اجعل الله غايتك . اجعل رضا الله نصب عينيك ، ولا يهمك بعد ذلك رضي الناس أم سخطوا ، قربوا أم بعدوا ، فقد كسبت الغاية الأولى . كان الصالحون ينشدون قول أبي فراس في مدحه لسيف الدولة الحمداني ، فقالوا : أولى من يخاطب بهذا هو الله عز وجل يقول له :

فليت الذي بيني وبينك عامر ... وبيني وبين العالمين خراب

وليتك تحلو والحياة مريرة ... وليتك ترضى والأنام غضاب

إذا صح منك الود فالكل هين ... وكل الذي فوق التراب تراب

ضع يدك في يد الله ، حدّد غايتك ؛ أن تُرضي الله عز وجل بهذا تستريح ، إنما يتعذب الناس حينما تتنازع غاياتهم ، ينازع بعضها بعضا ، أيشرّق أم يغرّب؟ أيُرضي زيداً أم يُرضي عمرا؟ أيكسب المال أم يكسب الجاه؟ أيرضي هذا الأمير أم ذاك الأمير؟ ورضا الناس غاية لا تدرك وكما قال الشاعر :

إذا رضيت عني كرام عشيرتي ... فلا زال غضبانا عليّ لئامها

---

(١) هي من كلام ابن عطاء الله السكندري في حكمه ، وفيها يقول : أنت الذي أشرقت الأنوار في قلوب أوليائك حتى عرفوك ووحدوك ، وأنت الذي أزلت الأغيار من قلوب أحبابك حتى لم يحبوا سواك ، ولم يلجئوا إلى غيرك ، أنت المؤنس لهم حيث أوحشتهم العوالم ، وأنت الذي هديتهم حتى استبانت لهم المعالم ، ماذا وجد من فقدك؟ وما الذي فقد من وجدك؟...إلخ.

وقال آخر :

ومن في الناس يرضي كـــل نفـــس وبين هوى النفوس مـــدى بعيـــد

دعك من إرضاء الخلق ، واكسب رضا الخالق ، اكسب رضا الخالق ، وبذلك تستريح وتُريح ، من عرف هذه الغاية استراح وسعد ، وشعر بحلاوة الإيمان تخالط بشاشته القلوب ، شعر بهذه السعادة التي قال فيها بعض الصالحين : إنما نعيش في سعادة لو علم بها الملوك لجالدونا عليها بالسيوف .

السعادة الروحية ، سعادة الإيمان ، قالوا : لو الملوك يعرفون قدرها لقاتلونا عليها بالسيوف ، إنما من فضل الله عليهم أن الملوك في شغل عنها ، في غفلة وعمى عنها ، لا يعرفون قدرها ، ولذلك تركوها لهم ، يستمتعون بها وحدهم دون منافس أو منازع . هذه هي السعادة .

الطريق واحدة لا تتعدد :

اعرف الغاية ، ثم اعرف الطريق للوصول إلى هذه الغاية .

الطريق طريق واحد ، خذه من الوحي المعصوم ، هو الذي يبين لك الطريق ، يعرفك الحلال من الحرام في التصرفات ، يعرفك المسنون من المبتدع في العبادات ، يعرفك الحق من الباطل في المعتقدات ، يعرفك هذا ويعرفك أقدار الأعمال ومراتبها ؛ أي شيء يأتي أولاً ، وأي شيء يأتي آخراً ، النبي عليه الصلاة والسلام يقول : «الإيمان بضع وسبعون شعبة أعلاها لا إله إلا الله وأدناها إماطة الأذى من الطريق»[1] ، لا بد أن تعرف الأعلى والأدنى والوسط ، ولا تخلط الأمور بعضها ببعض ، لا تنشغل بالنوافل وتضيع الفرائض ، لا تنشغل بالفروع وتضيع الأصول ، لا تنشغل بالمختلف فيه ، وتضيع المتفق عليه ، لا تنشغل بالمكروهات والناس يقعون في المحرمات ، بل في الكبائر .

---

(١) رواه البخاري في الإيمان (٩) ، ومسلم في الإيمان (٣٥)عن أبي هريرة وهذا اللفظ لمسلم .

اعرف الأمور بمستوياتها ومراتبها اعرف «فقه الأولويات»[1] واعرف فقه الموازنات وازن بين المصالح بعضها وبعض ، وبين المفاسد بعضها وبعض ، وبين المصالح والمفاسد إذا تعارضت[2] ، وليكن عندك معيار صحيح ، معيار من الشرع الحقيقي لا من الثقافة المغلوطة ؛ التي تأخذها عن عوام الناس ، وعوام الوعاظ ، ولا تأخذها عن المتشددين المغلقين ؛ الذين يريدون أن يحرموا عليك كل شيء ؛ وأن يشددوا عليك كل شيء ، ولا من المتسيبين ؛ الذين يريدوا أن يبيحوا لك كل شيء ، وأن يسهلوا لك كل شيء .

خذها من العلماء المعتدلين الراسخين الذين يردونك إلى الأصول الصحيحة ، إلى الشرع المعتبر من كتاب الله ، وصحيح سنة رسول الله .

قل : آمنت بالله ثم استقم[3] :

اعرف غايتك واعرف طريقك ، وقل : «آمنت بالله ثم استقم» ، هكذا قال النبي ﷺ ذلك للصحابي حينما سأله ، وقال : يا رسول الله! قل لي في الإسلام قولاً ؛ لا أسأل عنه أحداً بعدك . فقال :« قل آمنت بالله ثم استقم»[4] ، وكما قال القرآن : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا

---

(١) من أنواع الفقه التي عنينا بها :« فقه الأولويات» وقد كتبت فيه كتابات كثيرة ، أهمها : (أولويات الحركة الإسلامية في المرحلة القادمة) و (في فقه الأولويات) ونعني بهذا الفقه : وضع كل شيء في مرتبته بالعدل ، من الأحكام والقيم والأعمال ، ثم يقدم الأولى فالأولى ؛ بناء على معايير شرعية صحيحة ؛ يهدي إليها نور الوحي ، ونور العقل. انظر : في فقه الأولويات ، ص٩.

(٢) لمنهجنا مرتكزات دعوية عرف بها ، ودعا إليها ، هذه المرتكزات هي : الفقه بمعناه القرآني الذي يشتمل على ألوان الفقه ، ويشمل أول ما يشمل فقه آيات الله في الكون والمجتمع والأسرة ، وفقه الموازنات ، وفقه الأولويات ، وفقه المقاصد ، وفقه الاختلاف. انظر : لقاءات ومحاورات/ ج٢/ ص٢٢٢ ، ٢٢٣.

(٣) لنا خطبة كاملة عن الاستقامة ، وهي بعنوان : الاستقامة وأثرها في حياة المسلم (ج٦/ ٦٩).

(٤) رواه مسلم في الإيمان (٣٨) وابن ماجه في الفتن (٣٩٧٢) والترمذي في الزهد (٢٤١٠) والنسائي في «السنن الكبرى» في التفسير (١١٤٢٥) عن سفيان بن عبد الله.

تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْآخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴾ (فصلت:٣٠-٣٢) ، لمن هذا كله؟ لمن قال : ربنا الله ثم استقام .

(ربي الله) منهج حياة :

وكلمة ﴿ رَبُّنَا ٱللَّهُ ﴾ ليست مجرد كلمة تلاك باللسان ؛ إنها التزام . إذا قلت : ربي الله ؛ فمعناها : أنك تلتزم بمنهجه ، وتعمل على ما يرضيه ، وتجنب ما يسخطه ، هذا معنى : ربي الله ، وتلاقي في ذلك ما تلاقي ، وتصبر عليه ، ولذلك نجد الذين قالوا : ﴿ رَبُّنَا ٱللَّهُ ﴾ أصابهم ما أصابهم . سيدنا موسى حينما قال : ربي الله ، أراد فرعون أن يقتله ، ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ ﴾(غافر:٢٦)، ﴿ وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ﴾ (غافر:٢٨) من أجل إعلان هذه الحقيقة تسفكون دمه .

وحينما جهر النبي ﷺ ، وجهر أصحابه معه بهذه الكلمة ﴿ رَبُّنَا ٱللَّهُ ﴾ (الحج:٤٠) ليس الأصنام ، ليس الطواغيت ، ليس هبل ولا مناة ، ولا اللات ولا العزى ، ولا البشر الذين يحلون ويحرمون على الناس ما يريدون ، كالذين ﴿ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ (التوبة:٣١) ، حينما قال الرسول وأصحابه : ﴿ رَبُّنَا ٱللَّهُ ﴾ أصابهم ما أصابهم ، ولذلك قال الله تعالى : ﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ﴾ (الحج : ٣٩،٤٠) لا ذنب لهم إلا أنهم قالوا : ﴿ رَبُّنَا ٱللَّهُ ﴾ ، أعلنوها صريحة ، رفضوا كل ما سوى الله وقالوا : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ (الفاتحة:٥) فأُخرِجوا من ديارهم وأموالهم ، وصُبتْ عليهم سياطُ العذابِ صبًّا .

الاستقامة : أن تسلك الصراط المستقيم :

ولذلك قل : ربي الله ، أيْ : اعرف غايتك ، وتمسك بها ، تمسك بالعروة الوثقى التي لا انفصام لها . واعرف طريقك وهو : الاستقامة على مقتضى هذه الكلمة ؛ كلمة التوحيد ، كلمة ربي الله . اسلك طريق الاستقامة ، لا تتوقف في هذا الطريق ، ولا ترتد عن هذا الطريق ، ولا تنحرف يميناً ولا شمالاً .

الاستقامة أن تسلك الصراط المستقيم ؛ الذي تدعو الله أن يهديك إياه في كل يوم سبعة عشر مرة على الأقل ، إذا اقتصرت على صلاة الفرائض ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾ (الفاتحة:٦،٧)، المغضوب عليهم : الذين عرفوا الحق وحادوا عنه ، والضالون : الذين تاهوا عن طريق الحق ولم يعرفوه[1] . أنت تدعو الله أن يهديك إلى طريق غير طريق هؤلاء ، بل إلى طريق الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ، الذين هداهم الله بهداه ، والذين أشرقت عليهم أنوار الهداية من الله ، فهذا هو الطريق .

العلم إمام والعمل تابع :

اعرف غايتك واعرف طريقك ، هذا ما ينبغي أن يطلبه المسلم ، الذي يريد أن يسلك الطريق إلى الله ، وأن يزكي نفسه للوصول إلى مرضاة الله ، وبغير هذا لن يصل إلى ما يريد ، مهما أكثر من العمل ، إذا لم يكن عملاً مبنياً على علم صحيح ، فإن « العلم إمام والعمل تابعه »[2] كما قال معاذ ﷺ .

العلم عندنا نحن المؤمنين إمام العمل ، وهو دليل الإيمان ، ليس هناك عندنا انفصال بين العلم والإيمان ، العلم هو دليل الإيمان ، الله تعالى يقول :

---

(١) لابن كثير كلام في هذا المعنى ذكر سابقا (١/ ٥٢).

(٢) جزء من كلام معاذ بن جبل ، رواه أبو نعيم في الأولياء (١١ / ٢٣٩) وأوله : (تعلموا العلم فإن تعلمه لله تعالى خشية.....) وقال الألباني في السلسلة الضعيفة : موضوع (٥٢٩٣) والأولى أن يأخذ على أنه من حديث معاذ موقوفا..

﴿ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ ﴾ (الحج:٥٤) انظر إلى هذا التعبير القرآني ﴿ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ﴾ فيترتب على هذا أن يؤمنوا بالله ، ويترتب على هذا الإيمان أن تخبت قلوبهم ، (الفاء) في اللغة العربية تدل على الترتيب والتعقيب ، أي أن العلم يؤثر فيحدث الإيمان ، والإيمان يؤثر فيحدث إخبات القلوب ، وخشوع القلوب ، ورقة القلوب ، وخشية القلوب .

هذا هو العلم ، فتمسكوا بالعلم أيها الإخوة ، وسيروا في الطريق المستقيم ، واسألوا الله تبارك وتعالى أن يتم عليكم نعمته ، وينزل عليكم سكينته ، وأن ينشر عليكم فضله ورحمته ، ﴿ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴾(النور:٤٠)

أقول قولي هذا أيها الإخوة ، وأستغفر الله تعالى لي ولكم ، فاستغفروه ؛ إنه هو الغفور الرحيم ، وادعوه يستجب لكم .

* * *

● **الخطبة الثانية :**

أما بعد . . . فيا أيها الإخوة المسلمون :

ذكرى سقوط بغداد ، ومذبحة الفلوجة :

نحن اليوم في التاسع من نيسان ، أو التاسع من إبريل سنة ٢٠٠٤م ، وهذا هو اليوم الذي يمثل الذكرى الأولى لسقوط بغداد ؛ عاصمة الرشيد والمأمون ، ودار السلام ، سقوطها في يد الاحتلال الأمريكي وحلفائه ، مرّت سنة كاملة اثنا عشر شهراً على هذا الحدث ، على الحرب في العراق ؛ التي انتهت بعد ثلاثة أسابيع ، وانتهت فجأة بغير مقدمات ، وأصبح الأمريكان هم السادة ؛ الذين يحكمون هذه الديار ! !

أكذوبة أسلحة الدمار الشامل :

وقد تبينت حقائق في هذا العام ، من هذه الحقائق : أن الأمريكان زعموا أنهم دخلوا العراق ؛ ليتخلصوا من أسلحة الدمار الشامل ، التي كان يملكها العراق ، وقد مضت اثنا عشر شهرا ولم يجد الأمريكان ، ولا حلفاء الأمريكان ، من أسلحة الدمار شيئا ، والبلد بأيديهم يجوبونها شبراً شبراً ، لم يجدوا فيها شيئا ، وأصبح هناك أناس يحاكمون من أجل هذه القضية ؛ في أمريكا ، وفي بريطانيا ، وهناك من استقال ، وهناك من انتحر ، وهناك وهناك . . . . ظهرت الأكذوبة الكبرى : أن الأمريكان ما دخلوا من أجل هذا الأمر ، وقبل ذلك كان هناك فريق تفتيش دولي ، لأمريكا فيه نفوذ ؛ أي نفوذ ، ما عثر على شيء .

أمريكا دخلت بقرار فرعوني :

تبين إذن أن دخول الأمريكان لم يكن له مبرر في ميزان القانون الدولي ، وعلى كل حال الأمريكان لم يدخلوا بقرار دولي ، بل دخلوا بقرار فرعوني ، بقرار شخصي ، بالقوة الغالبة ، (بالعافية) ، لم يوافق مجلس الأمن على دخول الأمريكان ، ولم توافق بعض الدول الكبرى مثل : فرنسا وألمانيا والصين على دخول الأمريكان .

ولكن الأمريكان دخلوا بدعوى تخليص العراق من أسلحة الدمار ، وما وجدت أسلحة الدمار . ثم قال الأمريكان : إنهم دخلوا ليخلصوا العراقيين من طغيان صدام حسين . الأمريكان قوم تفيض قلوبهم رقة ورحمة! رقة ورحمة بالعراقيين المساكين! جاءوا ليخلصوا شعب العراق من صدام حسين . سلمنا وصدقنا يا معشر الأمريكان ، وتخلصتم من صدام حسين ، وخلصتم الشعب العراقي من صدام حسين ، الذي طالما أيدتموه وآزرتموه وعاونتموه ، وأسلحة الدمار الشامل أنتم الذين أعطيتموه إياها ، ويقول رامسفيلد : نحن الذين أعطيناه هذه الأسلحة . أنتم الذين عاونتموه ليضرب بهذه الأسلحة إيران ، ويضرب بهذه الأسلحة الأكراد في حلبجة ، ويوم ضرب هؤلاء وأولئك ؛ لم تقولوا كلمة ، ولم تنكروا عليه .

خلصتم الشعب العراقي من صدام ؛ شكراً جزيلاً!! يا أمريكان ارجعوا إلى دياركم ، أريحونا من وجودكم ، أديتم مهمتكم .

ما بقاؤكم في هذا البلد؟ يقولون : بقينا في هذا البلد لنقر فيه الأمن والاستقرار والطمأنينة ، مضت السنة كاملة ؛ ولم نر أمناً ، ولا استقراراً ، ولا اطمئناناً . الوضع يزداد سوءاً ، الطين يزداد بلة ، والداء يزداد عِلّة ، ووجودكم نفسه هو الذي يحدث هذا الخلل ، هو الذي يمنع الاستقرار ويمنع الأمان . اخرجوا من العراق ، واتركوا العراق لأهله . هذا ما ينادي به العراق جميعاً ؛ عربه وأكراده ، سنته وشيعته ، مسلموه ومسيحيوه ، يقولون للأمريكان : اخرجوا من بلادنا ، اتركونا نتصرف في أمرنا .

العراقيون ليسوا في حاجة إلى أوصياء :

هل الأمريكان معلّمون للعراقيين؟! العراقيون بلد ورث حضارات عمرها آلاف السنين ، الأمريكان حضارتهم بنت مئتي سنة . مئتي سنة سوف تعلم آلاف السنين؟

اتركوا أيها الأمريكان العراق لأهله ، العراق أَهْلُ لأن يقود نفسَه بنفسِه . وجودكم هو الخطر ، وجودكم هو الشر ، ما دمتم موجودين ستظل الأمور على ما هي عليه ، وتزداد كل يوم سوءا ، . وآخر ما رأيناه هذه المجزرة الهائلة ، نحن نرى في كل يوم قتلى ، وفي كل أسبوع ضحايا وشهداء ، في المناطق المختلفة ، كانت مناطق أهل السنة أولا ، ثم أضيف إليها الآن مناطق الشيعة بدخول الصدر وجيشه في المعركة ، الشيعة تحركوا . لا بد لهذا الشعب مهما صبر أن يتحرك ، كلهم يريد الحرية ، كلهم يريد الاستقلال ، في كل يوم نرى ضحايا وشهداء .

هؤلاء الأمريكان لا يعرفون أقدار الناس ، لا يعرفون القِيمَ التي تسود الناس ، لا يعرفون التقاليد التي تَحْكُم الناس ، يدخلون البيوت ، ويفتشون الناس ،

ويكشفون النساء ، ويكشفون على هذا وذاك ، لا يراعون حرمة ولا يراعون عورات ، ولا يراعون قيماً ، وليس عندهم شيء من الحياء ، النبي عليه الصلاة والسلام يقول : « إذا لم تستح فاصنع ما شئت»[1] .

التمثيل بالجثث منهي عنه ؛ ولكن !

هذه الأعمال المستفزة تدفع العراقيين أن يدفعوا عن أنفسهم ، ولقد حَدَثَ أن قتل بعض الناس عددا من الأمريكيين ، ومثلوا بأربعة جنود منهم ، وجنّ جنون الأمريكان ، كيف يُمَثَّلُ بجنودهم؟ هنالك أرادوا أن ينتقموا من شعب الفلوجة جميعاً بسبب هؤلاء الأفراد . إنه منطق الإرهابيين أنفسِهم ، إنهم يحاربون الإرهابيين بدعوى أن الإرهابيين لا يفرقون بين مدني وغير مدني ، ويحاربون جماعات كاملة من أجل فرد أو فردين . هم يفعلون هذا .

الإرهابيون ربما فعلوا ذلك لعجزهم عن الأخذ بحقوقهم ، وليأسهم من الاقتصاص من الظلمة . أما أنتم الدولة الكبرى ، كيف تفعلون ما يفعل الإرهابيون؟! كيف تعاقبون شعباً كاملاً من أجل التمثيل بأربع جثث؟ نحن ننكر التمثيل بالجثث ، الإسلام لا يرضى التمثيل بالجثث ، النبي ﷺ في وصاياه يقول « لا تغلوا ، ولا تغدروا ، ولا تمثلوا ، ولا تقتلوا امرأة ، ولا وليدا . . . .»[2] .

هذه وصاياه لأصحابه ولقواده . وكذلك الخلفاء الراشدون في وصاياهم ، الكل يرفض التمثيل بالجثث ، لا انتقام من الإنسان بعد موته . الإسلام يحترم الإنسان بعد موته ؛ مسلماً أم غير مسلم ، أبو بكر رضي الله عنه حينما جيء له بصرة ففتحها ، فوجد فيها رأساً ، فسأل : ما هذا؟ قال له المبعوث الذي جاء بها : هذه

---

(١) رواه البخاري في الأدب (٦١٢٠) وأحمد في المسند (١٧٠٨٩) وابن ماجه في الزهد (٤١٨٣) وأبو داود في الأدب (٤٧٩٧) عن أبي مسعود الأنصاري.

(٢) رواه مسلم في الجهاد والسير (١٧٣١) وأحمد في المسند (٢٢٩٧٨) وابن ماجه في الجهاد (٢٨٥٨) وأبو داود في الجهاد (٢٦١٢) والترمذي في الديات (١٤٠٨).

رأس أحد قواد الفرس . فقال له : لا يحمل إليّ رأس بعد اليوم . قال : يا أمير المؤمنين! إنهم يفعلون ذلك بقوادنا ، إذا قتلوا قائداً بعثوا برأسه إلى ملكهم ، أو كبير قوادهم ، فقال : آستنان بفارس والروم؟ـ يعني أتستنون بسنتهم وتقتدون بهم تتخذونهم أئمة لكم ـ والله لا يحمل إليّ رأس بعد اليوم ، إنما يكفي الكتاب والخبر[1] . تكفي رسالة : أننا قتلنا القائد الفلاني . رفض أبو بكر رضي الله عنه أن نستن بهم ونفعل ما يفعلون بنا .

هذا هو الإسلام ، لا قانون الغاب :

هذا هو الإسلام . كيف يحمل شعب الفالوجة جميعه وزر هؤلاء ولا نعرف من أين جاءوا؟ ربما جاءوا من الخارج . هذا منطق الغابة ، قانون الغاب هو الذي يسير الأمريكان ، قانون الظفر والناب ، القوة هي التي تحكم وليست المنطق ، وليست الأخلاق . هذا ليس عالماً متحضراً ؛ هذا عالم متخلف ، العالم المتخلف هو الذي يحكمه قانون الظفر والناب .

نحن ننكر على القوات الأمريكية هذه الهجمات الوحشية على شعب الفلوجة ، وعلى قتلهم النساء والصبيان ، والشيوخ والمدنيين بغير مبالاة . الدماء تُسفك ، والحرمات تُنتهك ، والمساجد تُدَمّر ، والمنازل تُخَرّب ، كأننا في حرب عالمية ؛ بالطائرات الأباتشي ، والطائرات المقاتلة إف١٦ ، والدبابات والمجنزرات .

ما هذا؟ علام تستأسدون؟! على أناس عزل ؛ لا سلاح معهم ، الآن أصبح كل أهل الفلوجة في مقاومة هذا العدوان الوحشي ، هذه الهجمات التي لا ترعى لأحد حرمة ، ولا ترقب في مؤمن إلاّ ولا ذمة .

---

(١) رواه سعيد بن منصور في سننه (٢/٢٤٥) وابن أبي شيبة في مصنفه كتاب السير (٦/٥٣٤) والنسائي في الكبرى كتاب السير (٥/٢٠٤) والبيهقي في الكبرى كتاب السير (٩/١٣٢).

إننا ننكر هذا العدوان الوحشي ، وندعو العالم المتحضر كله أن يقف معنا ، وندعو العرب والمسلمين ؛ ندعو جامعة الدول العربية ، وندعو منظمة المؤتمر الإسلامي ، وندعو كل المؤسسات : أن تقف ضد هذه الهجمات الوحشية ، وندعو مجلس الحكم الانتقالي والأحزاب الوطنية والإسلامية أن تقف موقفاً ، أن ترفض هذا وتنكره ، وتحدد للأمريكان موقفاً ؛ إما أن تفعلوا هذا أو نستقيل ، لا بد من تهديد هؤلاء ، لا يجوز أن يستسلم الناس أمام الطغيان ، فإن الطاغية إذا استسلمتَ له شبراً ، أراد لك أن تستسلم ذراعاً ، وإذا استسلمتَ ذراعاً أراد أن تستسلم باعاً ، وإذا استسلمتَ باعاً أراد أن تستسلم كيلو مترا . . . وهكذا . لا نهاية للتنازلات ؛ إذا سرنا في طريق التنازلات .

تحية لشعب العراق الباسل :

إننا نُحيّي الشعب العراقي الباسل الكريم ، ونحيّي كل من وقف في تأييد هذه القوة المقاومة ، التي تقاوم الاحتلال ، وتدافع عن أرضها ، وتريد الاستقلال لأوطانها . نحيّي هؤلاء ، ونحيّي وزير حقوق الإنسان ، الذي قدم استقالته احتجاجاً على هذا العدوان الوحشي .

ننادي الشعب العراقي أن يلتف جميعاً بسنته وشيعته ، بعربه وأكراده ، بمسلميه ومسيحييه ، بكل فئاته الوطنية والإسلامية ، بكل قواه المدنية ، نريده أن يلتف حول إخوانه وأن يدافع عنهم ، وأن يقف صفاً واحداً ، كالبنيان المرصوص . ونريد من حكام العرب والمسلمين أن يحتجوا على هذا ، وأن ينادوا الأمريكان : أن كفوا عن إخواننا ، كفوا أيديكم عن هذا الإيذاء ، كفوا أيديكم عن هذا العدوان ، عن هذا التجبر ، إن الأمريكان يتصرفون تصرف المتجبر الجبار ؛ والله تعالى يخيب آمالهم ﴿ وَٱسْتَفْتَحُوا۟ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴾ (إبراهيم: ١٥) .

أيها الإخوة المسلمون ؛ لقد كثرت مصائب الأمة ؛ ولا ندري أي مصيبة ندفع ؛ المصائب من هنا ومن هناك ، المصائب عن يمين وشمال ، يحتار من يتحدث عن مصائب المسلمين ومآسي المسلمين ؛ بأيها يبدأ ، وبأيها ينتهي ، كثرت علينا المآسي ، وكثرت علينا النكبات ولا حول ولا قوة إلا بالله ، ولكن أملنا في هذه الأمة أنها ستنتصر وأن بعد هذا الظلام فجراً وأن بعد هذا العسر يسرا ، وأن الله غالب على أمره ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون . ﴿ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴾ (الحج: ٤٠) .

أسأل الله تبارك وتعالى أن يهيئ لهذه الأمة من أمرها رشدا ، وأن يجمع كلمتها على الهدى ، وقلوبها على التقى ، ونفوسها على المحبة وعزائمها على عمل الخير وخير العمل .

* * *